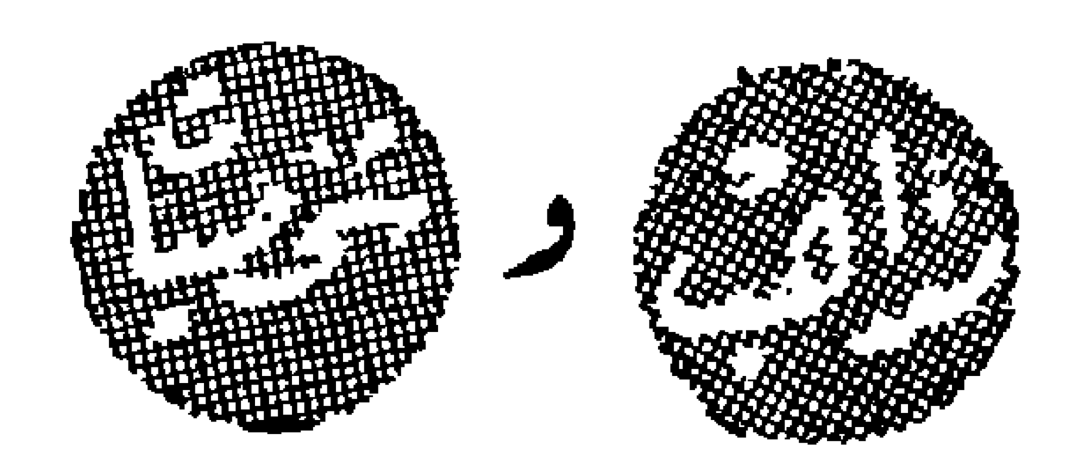

مذاهب وشخصيات
خليل النيل
وشاعر الشرق العربي
تأليف
الدكتور جمال الدين الرمادي



خليل النيل

وشاعر الشرق العربي

تأليف : الدكتور جمال الدين الرمادي

مقدمة

خليل مطران هو أحدالشعراء الثلاثة الذين نهض الشعر العربي على أكتافهم وبنفثات يراعهم في النصف الاول من القرن العشرين . وهم شــوقي وحافظ ومطران . وقد قام الخليل بنصيب موفور في اعــلاء شأن الشعر وتجديده وتحريره من قيوده القــديمة في الاغراض والمعاني والخيال وضرورة القافية مع العنــاية التامة بوحدة الموضوع . ولد مطران في مدينة بعلبـك بلبنان سنة١٨٧١م وتلقى علومه فيالمدرسة البطريركية ببيروت وتتلمذ على يد العلامة ابراهيم اليازجي حجــة اللغة والادب في عصره ، وعكف على دراسة أمهاتالكتب ودواوين الشعراء في الشرق والغرب ، وقضى زهــرة شبابه في لبنان الى أن اضطرته الظروف الى الهجـرة الى باريس ، غير أن المقام لم يطل به هناك لأن السلطات الفرنسية كانت تزعجه لاشتراكه في بعض الحــركات الوطنية التي تستهدف تحرير الوطنالعربي . فلميجد بدا من الهجرة الى مصر حيث اتخذها وطنه الثاني .

وفي مصر اشترك خليل مطران في ازكاء الحــركة الثقافية في البلاد . وساهم في تحرير الاهرام واللواء والمؤيد . كما أصدر المجلة المصرية والجوائب على النحو الذي سنتناوله بالتفصيل في الفصول القادمة .

وقد عين مطران مراسلا لجريدة الاهرام في القاهرة عندما كانت تصدر في الاسكندرية ، وبعد انتقالها الى القاهرة طلب اليه المسئولون في الجريدة القيام بمهمة رئيس التحرير فاعتذر عن قبول هــذا المنصب لكثرة أعماله وضعف صحته .

وانصرف مطران عقب ذلك الى ميادين الحيــــاة الاقتصادية ، واشترك مع جورج مطران فى ادارة معامل الروائح العطرية وأغدقت عليـــه الارباح من كل جانب حينا وأصيب بخسائر فادحة حيناآخر الى أن انتهى به المطاف الى العمل سكرتيرا للجمعية الزراعية المصرية ٠

وفى عام ١٩٣٥ تولى ادارة الفرقة القومية المصرية للتمثيل العربى ، وبقى فى ادارتهــا ما يقرب من سبعة أعوام قدم خلالها للفرقة باللغة العربية نخبة من روائع المسرح الفرنسى والانجليزى ٠

وقد أدركت مطران العلة فى أيامه الاخـــيرة وحالت بينه وبين النهوض بأى عمل وظل يكابد غصص المـوت فترة طويلة حتى استوفى أنفاسه وفاضت روحـــه الى بارئها فى مساء الخميس الموافق ثلاثين من يونيــو عام ١٩٤٩ففقد الشعر العربى بموته ركنا ركينا من أركانه٠

الباب الأول

الفصل الأول : الشاعر والعصر

يعتبر خليل مطران أحد الرواد الذين نزحوا عن ديارهم وهاجروا من بلادهم ابتغاء الرزق والحياة .

وقد كانت مصر - ولا تزال حتى الآن - كعبة للمهاجرين من كل فج ، ولاسيما أهل الشام اذ ان انهيال أهله على مصر قديم جدا يصعب تعيين زمنه لاتصاله بالبر والبحر ، وكان سكان الساحل السورى الذين سماهم اليونان بالفينيقيين أشهر من قام بالهجـــرة ، حتى انتشرت مستعمراتهم على طول البحر الابيض وعرضه . وكان اكتشافهم للمحيط الاطلسى من أعظم ما أفادوا به العالم ، كما ان رحلتهم حـــول القارة الافريقية كانت قبل جولة البرتغاليين بألفى سنة .

هذا ، ونعنى بسوريا البلاد الممتدة من جبال طوروس فى الشمال الى صحراء سينا فى الجنوب .

وفى تاريخ اليونان قصة (كدموس) السورى الذى حمل الابجدية السورية الى بلاد اليونان واسم (كدموس) مشتق عن الاصل السورى السامى (قادم) (١) .

ولم تكن القوافل فى الاسلام تنقطع عن السير فى البر ، كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر فى البحر ، غير اننا نرجح أن مهاجرة السوريين الى مصر زادت منذ أوائل القرن الثامن عشر ، عندما لجأ اليها الروم الكاثوليك هربا من الاضطهاد الدينى فى سوريا ، وكان قد سبقهم بعض أفراد من الموارنة أكثرهم تجار حلبيون . ولابد أن يكون للارساليات الافرنجية فى القطرين المصرى والسورى ، وعلى الأخص الفرنسيسكان

---

(١) الهجرة للدكتور جورج حداد . المحاضرات العامة للجامعة الســورية ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ص ٣٣

خدام الكاثوليك فى مصر ، يد فى دفع تيار هذه المهاجرة · فكنت تراها فى بدء أمرها كالسيل فى بدء الامطار ينحدر رويدا رويدا من مدينتى دمشق وحلب موطنى الاضطهاد الدينى ضد الكاثوليك عامة وطائفتى الروم الكاثوليك والسريان خاصة ، وقد ينضم الى تيار الهجرة فى الطريق بعض النازحين من المدن الصغيرة كحمص وطرابلس وصيدا ، وعكا ، ثم يتدفق مرة واحدة فى وادى النيل · ويتجه القليل منه شمالا نحو دمياط ورشيد والاسكندرية والبقية وهو القسم الاكبر كان ينهمر نحو القاهرة عاصمة البلاد ومركز التجارة الاكبر فيها · (١)

وفى القرن التاسع عشر اشتد تيار الهجرة من الشام ، ولاسيما بعد فتح عكا وسقوطها فى يد محمد على فى ٢٧ من مايو ١٨٣٢ · فقد امتد النفوذ المصرى الى تلك البلاد اذ ادعى محمد على حماية الفلاحين المضطهدين من جور عبد الله والى عكا ، وانتهز فرصة عدم اذعانه لرغباته ، وتصدير الاخشاب اللازمة لأسطوله ، وعدم تسليم بعض المصريين الفارين من القرعة العسكرية والضرائب ، وجرد اليه حملة قوية على رأسها القائد ابراهيم باشا ·

ومنذ ذلك التاريخ ازدادت هجرة السوريين الى مصر وتتابعت أفواجهم اليها · وكان لبنان فى هذه الفترة جزءا من سوريا ، ولم يمنح الحكم الذاتى الا عام ١٨٦٤ م·

وتعتبر الهجرة الحقيقية الى مصر من سوريا ولبنان هى تلك التى تمت بين عامى ١٨٣١ ، ١٨٤٠ أثناء الحكم المصرى هناك ، غير ان هذا لم يمنع حدوث الهجرة فى السنوات التالية لهذه الفترة· وقد لجأ هؤلاء المهاجرون الى مصر فرارا من سيطرة الحكم العثمانى على العنصر العربى، اذ كان العثمانيون يكرهون العرب كراهية شديدة من أعماق قلوبهم ، ويطلقون على العنصر العربى (كلب عربى) امتهانا لكرامتهم وتصغيرا لشأنهم · كما كان السوريون يتطلعون الى خير مصر وخصوبة أرضها ووفرة مواردها الاقتصادية وكثرة موادها الخام · أما اللبنانيون فكانوا يقاسون ضائقة اقتصادية شديدة ونقصا خطيرا فى أسباب المعيشة فوجدوا فى مصر ضالتهم المنشودة التى تعصمهم من الجوع والحرمان اذ أن موارد لبنان فى ذلك الوقت كانت لا تفى بحاجة أهله · وبلغ من نتائج هذا أن نقص عدد سكانه مليونا ونصف مليون نسمة ، فى حين بلغ عدد المهاجرين الى الخارج مليونا ونصف مليون أيضا ···

---

(١) السوريون فى مصر تأليف الخورى بولس ج (١) ص ١٠٦

فما بالك لو بقى هؤلاء جميعا فى لبنان ؟

ولذلك السبب وجدنا « مطران » يتقرب دائما الى المصريين ويخطب ودهم ويعتبر مصر الوطن الثانى له فى شعره٠وقد أضفى عليه المصريون حبهم وعطفهم واهتزوا طربا من شعره ٠ وحاول مطران أن يتقرب الى الخديو عباس بما كتبه اليه من رسائل وما نظمه فيه من شعر ، فنجحت محاولته وعين سكرتيرا للجمعية الزراعية فى مصر ٠

والملاحظ فى تاريخ الهجرة ان السوريين واللبنانيين أهل مغامرة ومخاطرة وركوب للبحار منذ القدم ٠ فهم قد ورثوا هـذا الميـل منذ غابر الزمن ، واللبنانى قد يكون له أب فى مصر وعم فى نيويورك وأخ فى شيلى وآخر فى البرازيل ٠ ولم تكن هجرتهم فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين تقوم بها جماعات منظمة ذات برامج معينة ، ولم ينتج عنها تأسيس مستعمرات ومدن جديدة ـ كما كانت عند الفينيقيين ـ أو نشر دين معين كالارسـاليات وآنما كانت الى جهـات متفرقة من العالم الى حيث الطموح الى الرزق السابغ والعيش الوارف والحيـاة الحرة الطليقة من التقاليد والقيود الاجتماعية والسياسية ٠ ولابد أن المقيم كان يشجعه على الهجرة نجاح أخيه المغترب ، فيرحل قسم كبير من أفراد الاسرة أو القرية أو المدينة بالتدريج ، وقد يتوجهـون الى نفس المنطقة أو البلد ، وبهذه الطريقة ازدادت الاسر المهاجرة الى مصر ٠

وقد علقت مجلة الجديد التى تصدر فى سان باولو على الهجـرة قائلة : وان المهاجرين الذين استدانوا أجرة السفر فى أدنى الدرجات ونالهم ما لا يتحمله البشر من عنت سماسرة بيروت ومرسيليا وشراسة بحارة البواخر الأجنبية التى كانت تنقلهم الى هذه الديار ، أصبحوا اليوم والكثيرون منهم أصـحاب المعامل الكبرى والتجـارات الواسـعة والمزارع المترامية ، وهؤلاء يسكنون اليوم القصور الفخمة المزدانة بأفخم الاثاث والرياش والمجهزة بأحدث أسباب الراحة والرفاهية ولا يعرفون غير السيارات البديعة مركبا ٠ (١)

ويغلب على الظن أن أكثر الأسر المهاجرة الى مصر كان أصحابهـا أصحاب حرف فنية ، ومثال ذلك أسرة (زنانيرى) التى اشتهرت فى أول أمرها بصناعة الزنانير أى الاحزمة ، وأسرة فتال التى اشتهرت بفتل القطن ، وأسرة (عقاد) التى اشتهرت بعمل العقـد أى (الشراريب)

---

(١) مختارات الجديد لجامعها توفيق ضعوب طبع سان باولو عام ١٩٢٢ ص ٨

وأسرة (الشوربجى) التى اشتهرت بصناعة الجوارب ، وأسرة (السراج) التى اشتهرت بصناعة السروج ، وأسرة (تاجر) التى اشتهرت بالتجارة ، وأسرة (اللوزى) التى اشتهرت بتجارة القطن وجنيه من لوزته وصناعة الحرير ، وأسرة (نقاش) التى اشتهرت بالزخرفة والاشتغال بالفن ، وأسرة (حداد) التى اشتهرت بصناعة الحديد وهلم جرا (١) ٠

والظاهر أن أغلب الأسر السورية اشتغلت بالحرف والصناعة . أما الأسر اللبنانية فانصرفت الى الاعمال الفكرية والثقافية ، مثل جرجى زيدان مؤسس الهلال ، وبشارة تقلا مؤسس الاهرام ، وأبو خليل القبانى رائد التمثيل ، وعبد القادر المغربى العالم الجليل ، والسيد رشيد رضا صاحب تاريخ الامام محمد عبده ، والسيد فرح انطون كاتب المسرح ، والدكتور شبلى شميل صاحب جريدة البصير ، ومكاريوس صاحب جريدة المقطم ، والسيد يوسف الأسير المؤلف والكاتب ، والشيخ أمين الرافعى الصحفى المتفنن ، والأستاذ حبيب جاماتى الصحفى المعروف ونجل الدكتور يوسف جاماتى اخصائى الامراض الباطنية وخريج مدرسة طب قصر العينى فى مصر ٠ وغير هؤلاء كثيرون ٠

وقد بدت هذه الظاهرة كذلك فى المهاجرين الى الامريكتين، فأغلب المهاجرين الى هناك رجال حرفة أو صناعة ، واذا كانوا قد تثقفوا ونظم بعضهم الشعر ، فانما ذلك يرجع الى أنهم تثقفوا هناك ، وعكفوا على الاطلاع فى وسط تيار الحياة العملية المتدفق الذى لايعرف السكون أو الخمول ، زد على ذلك ان الشعر موهبة ربانية ٠ وقد اشتهر من أفراد الجالية السورية طائفة تعنى بتأثيث المنزل الجميل الانيق فى أمريكا وتزويده بالمطرزات والاقمشة المزخرفة ، كما نبغ شاب سورى يسمى (الياس) فى صناعة المعطف المعروف باسم (الكومينو) ولقب هناك (بملك الكومينو) ٠ وهناك ملوك آخرون غيره للصناعة والزراعة ، مثل ملك الحرير وملك الملاهى وملك السينما وملك البطاطا لاتساع مزارعه ، واخترع بعض السوريين اختراعات قيمة ، مثل (حسن كامل الصباح) الذى سجل عند وفاته عام ١٩٣٥ اثنين وسبعين اختراعا استخدمتها شركة جنرال الكتريك التى كان يعمل فيها فى نيويورك ، حتى سمى (اديسون الشرق) ، ومثل الدكتور (ميشيل مالطى) أستاذ الهندسة الكهربية فى جامعة كورنل وصاحب الابحاث والاختراعات فى الهندسة الكهربية ٠

---

(١) من حديث للاستاذ حبيب جاماتى الى كاتب هذا البحث ٠

وأغلب هؤلاء المهاجرين عكفوا على البحث والدراســـة فى المهجر فنبغوا وارتفعت أسهمهم فى ميدان الصناعة والاختـراع ، ومن أرباب الاعمال الذين تثقفوا فى المهجر جبران خليل جبران الذى عرفت لوحاته فى المجتمعات الامريكية · وايليا أبو ماضى الذى هاجر الى مصر وافتتح محلا صغيرا لبيع السجائر فى الاسكندرية ، ولـكن العيش لم يطب له فيها فهاجر الى أمريكا حيث أصدر جريدة عربية هناك ·

أما أغلب المهاجرين الى مصر ، فمن أهل الفكر أو الفن أو العـلم والعسكرية · وقد ساهم كثير منهم فى بناء صرح الصـــحافة فى وادى النيل ، كما زود بعضهم المسرح بنفثات أقلامهم ، واشترك بعضــهم فى التمثيل والغناء · وتعتبر فرقة (سليم نقاش) أول فرقة تمثيلية دخلت مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، وقد صرح لها بالدخول فى شهر ديسمبر ١٨٧٦ وكانت مكونة من ١٢ ممثلا و ٤ ممثلات قدموا على مسرح زيزينيا روايات منقولة من الفرنسية ، وترأس (يوسف خياط) هـذه الفرقة بعد انسحاب سليم نقاش وأديب اسحاق · وحضر الخديو اسماعيل تمثيل احدى روايات الفرقة على مسرح الاوبرا فى عام ١٨٧٩ · وكان اسم الرواية (المظلوم) فثـــارت ثائرته واعتقـــد ان فى الرواية نقدا لأساليب الحكم ، فأمر باخراج الجوق من مصر ولم تشـــهد مصر فرقة تمثيلية عربية حتى عام ١٨٨٢ · ثم جاء جوق « أبو خليل القبانى » الى مصر فى ٢٢ من يونيو عام ١٨٨٤ فقدم مجموعة مختارة من رواياته استهلها برواية (أنس الجليس) فرواية (الشيخ وضاح) و (مصباح وقوت الأرواح) و (عنترة العبسى) و (عفة المحبين) وغيرها ·

وقد ألف اسكندر فرح فرقة من الممثلين المصريين بعد سـفر أبى خليل القبانى الى الآستانة ، وانضم اليها أبو العدل وأحمد فهيم وعمر فائق ومحمد حبيب وغيرهم ·

وهكذا ساهم المهاجرون من أبناء سوريا ولبنان فى النهضة الفنية فى مصر ، وحضرت طائفة كبيرة منهم الى مصر لتعلم الفنون العسكرية أو دراسة الطب فى مدرسة طب قصر العينى ، كالدكتور يوسف جاماتى والاطباء من أسرة العلايلى وأصلها من طرابلس لبنان ثم هاجـــرت الى دمياط ، وأسرة الرافعى وأصلها من طرابلس لبنان كذلك حضرت الى مصر حيث انتشرت فى مدنها المختلفة ولاسيما فى طنطا ·

وقد زاد تيار الهجرة الى مصر فى فترة من الفترات حتى أوشك الوطنى أن يفنى فى الدخيل فسنت الحكومة المصرية فى عهـــد الوزارة

الرياضية ١٨٧٩ م لائحة صعبت فيها على النازل فى مصرأسباب الحصول على حقوق الوطنى الا بعد مقامه خمس عشرة سنة ، واشعاره الحكومة بعزمه على تغيير جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين والسبب فى اصدار هذه اللائحة منافسة هؤلاء المهاجرين لأبناء البلاد فى اجتياز الوظائف ، وساعد على ذلك ما ألقته بعض الجرائد المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة بين المصريين وغيرهم من النازحين ومنعت هذه اللائحة المهاجرين من ولوج باب الاستخدام فى دواوين الحكومة ، وحظرت عليهم تعاطى الاعمال الادارية والسياسية،وقصرت نشاطهم على ممارسة الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية فأفلحوا أكثر مما لو كانوا حصروا جهدهم فى الوظائف الاتكالية (١) • وبعدما كانت الهجرة مقصورة بادىء ذى بدء على المسيحيين ، أخذ اخوانهم المسلمون يقتفون آثارهم ، فكثر المهاجرون الى مصر من جميع الطوائف ، كما كثروا قبل ذلك وبعد ذلك الى أمريكا الشمالية والجنوبية واستراليا وافريقيا الجنوبية وغيرها •

وقد ساعد على شدة تيار الهجرة قانون الجندية فى لبنان • فكان من المألوف أن يسفر الوالد ولده فى العشرين أو الخامسة والعشرين ولكن عقب صدور هذا القانون أصبح يرحله فى الخامسة عشرة بل وفى الثانية عشرة لينجو من الخدمة العسكرية أو ليجمع بدله النقدى قبل أن تصيبه القرعة •

ويعد خليل مطران - كماسبق أن أشرت فى مستهل هذا البحث - أحد الرواد المثقفين الذين حضروا الى مصر فى بداية القرن العشرين على النحو الذى سنفصله فى فصل قادم ، وقد حضر بعده أخوه (جورج مطران) الى مصر ، حيث ساهم معه فى تحرير صحيفة (الجوائب) و (المجلة المصرية) ، ثم ترك الصحافة وافتتح معملا لاستخراج الروائح من الازهار ولبيع العطور ، لا يزال ورثته يديرونه حتى الآن بجوار البنك الاهلى المصرى • وأسرة مطران تمثل الاسرة اللبنانية المهاجرة أصدق تمثيل ، فشقيقه (البير) يعيش الآن فى بعلبك بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، وشقيقاته منتشرات فى أرجاء العالم ، فواحدة منهن فى المكسيك والثانية فى طوكيو والاخرى فى باريس •••

وقد حمل مطران معه مشعل الثقافة اللبنانية فى عصره الى مصر ،

---

(١) القديم والحديث للاستاذ محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى عام ١٩٢٢ ص ٢٥٥ •

وكانت الثقافة قد ازدهرت فى لبنان منذ حملة نابليون بونابرت على مصر ١٨٩٨ واجتياحه بعد ذلك أودية سوريا الجنوبية حتى أسوار عكا ، فكانت هذه الحملة مقدمة لاستيقاظ أهل سوريا ولبنان واحساسهم بآثار المدنية الأوربية فى صورها الثقافية والشعورية والمعيشية ، فعكفوا على العلم والدراسة والانتهال من معين الثقافة الغربية والمحافظة على التراث العربى القديم ، فظهر منهم أدباء وشعراء وصحفيون ورجال فكر ضربوا بسهم وافر فى ميادين الحضارة .

الفصل الثاني : شاعر التجديد

شهد القرن العشرون منذ مستهله دعوات عديدة للتجديد في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والادبية ٠ وقام قاسم أمين في بداية هذا القرن بدعوته الى تحرير المرأة ورفع الحجاب ٠ وأحدثت هذه الدعوة دويا شديدا في المجتمع الشرقي عامة والمصرى خاصة ، وانبرى له لفيف من الكتاب وقادة الفكر يسفهون دعواه ويستخفون بآرائه ، في حين احتد لفيف آخر في الدفاع عن الدعوة ، وشهد القرن العشرون صراعا عنيفا ونقاشا شديدا بين الطائفتين ٠ ثم أخذ هذا الصراع يهدأ شيئا فشيئا حتى أوشك أن يخمد في بعض الفترات ، ولم يكن الصراع بين الطائفة الاولى والطائفة الثانية أو قل بين الطائفة المتحررة والطائفة المتزمتة يشمل الدعوة الى تحرير المرأة فحسب بل امتد الى الأخذ أو عدم الأخذ بأسباب المدنية الغربية والتزود من الثقافة الاوربية والتلاقى مع حضارة الغرب٠ وامتد الصراع كذلك الى الادب ، ففريق يتحمس للتراث العربى تحمسا شديدا فهو لا يجد خيرا منه ويعتبره المورد الاول والاخير لثقافة الاديب في الشرق ويأبى الاطلاع على ذخائر الفكر الاوربى ، ويعتقد ان هذا عبث لا طائل تحته ولا فائدة منه ولا غناء فيه ٠

وفريق آخر يدعو الى الاطلاع على ثقافة الغرب والتزود من مناهل الفكر الأوربى والانطلاق مع تيار المدنية الحديثة ، فلا خير في أمة تقف والعالم يتحرك ، ولا خير في شعب يجد أنهار الثقافة الأوربية تجرى متدفقة متدافعة عذبة ثم لا يدلى بدلوه ليرتشف منها ٠

استجابت مصر لدعوة الحضارة الجديدة التى قام بها فريق من قادة الرأى والفكر في البلاد فأنشأت الجامعة الاهلية التى أخذت تنمو وتترعرع على مدى الأيام حتى أصبحت جامعة حكومية ثم غدت أرقى الجامعات في الشرق العربى ، وتوسعت السلطات المصرية في افتتاح

المدارس والمعاهد العلمية والفنية ، وأنشئت مدرسة الفنون الجميلة ، ثم أسست مدرسة الفنون العليا الجميلة ، واستصدر مرسوم بتأليف لجنة استشارية للفنون ابتغاء العناية بها وأنشيء معهدالموسيقىالعربية، وأنشئت به مدرسة للموسيقى تعينها وزارة المعارف ماليا وتشرف عليها فنيا واداريا ، كما عنى بجعل الموسيقى جزءا هاما من ثقافة الشعب . وعلما يدرس بالمدارس الى جانب العلوم الأخرى ، وتوسعت السلطات المصرية في ارسال البعوث العلمية والفنية الى الخارج ، وأقامتمعارض للفنون الجميلة ، وأشرفت على تنظيم المعارض التى تقيمها الجهات والافراد ، وشجعتها بالاعانات وبشراء كثير من معروضاتها ، كما وجهت العناية الى المسرح العربى فأنشأت الفرقة القومية لرفع شأنه،وشجعت الترجمة والتأليف له ، وعين خليل مطران مديرا للفرقة . واستقدمت الحكومة الفرق الاجنبية الممتازة لاحياء المواسم التمثيلية ، وتكونت جمعيات تعنى بشئون العلم والآداب والفنون كالجمعية الجغرافية والجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع والمجمعالعلمى المصرى ورابطة الادب العربى وجمعية الفنون الجميلة ومجمع اللغة العربية الذى تألف من كبار اللغويين المقيمين فى مصر والبلاد العربية الشرقية وكبار المستشرقين الاجانب ذوى الشهرة فى العلوم العربية ، وامتدت النهضة الى ميدان الشعر ، فتألفتالجمعياتالادبية لطبعالآداب العربية بطابع جديد والنزوع بها الى التجديد وحاول الشعراء أن يخلقوا شيئا جديدا وان كان يختلف مفهومهم له ، وكان البارودى فى بادىء الأمر يعتقد ان التجديد هو ذكر المخترعات الحديثة ووصفها أو الاشارة اليها فقال :

طبعته فى لوح الفؤاد مخيلتى   بزجاجة العينين فهو مصور

واقتفى شوقى اثره فوصف الدبابة كما وصف حافظ ابراهيم القطار . غير أن مفهوم شوقى للتجديد كان يسمو على مفهومه عند حافظ فألف الروايات المسرحية مثل مجنون ليلى ومصرع كليوباترة وعنترة وقمبيز وأميرة الأندلس وغيرها . فأدخل على الشعر العربى والأدب العربى لونا جديدا لم يألفه الناس من قبل ، أو كان عهدهم به عهدا متواضعا بسيطا كما طعم شعره بنصيب من الثقافة الأدبية . وقام لفيف من الادباء فى الشرق بدعوة الى التجديد ، فها هو ذا أمين الريحانى يدعو الشعراء الى تجفيف الدموع فى المآقى . فما فضل الشاعر وهو يبكى ويئن مثل عامة الناس ؟ وليس الشعر زنبقة فى جمجمة ، وان فى الكون وفى الحياة جمالا اسمى وأبهى وأعظم من جمال الزنبقة اللطيف المحدود

مثل الشمس والقمر والمجرة .. فهي لمعات متجسدة من ذلك الجمال

انما الشعر الحقيقي مرآة الجماعات ومصباح في الظلمات وعون في الملمات وسيف في النكبات . الشاعر الحقيقي يشيد للامم قصورا من الحب والحكمة والجمال والأمل . فليكفكف الشعراء دموعهم وليرفعوا لهذه الامة التي تتخبط في الظلمات مشعلا فيه أمل وفيه صحة وعافية، وان في الصحة حياة جديدة .

اما دعوة جبران خليل جبران الى التجديد فقد لخصها في هذه العبارة .. (لكم لغتكم ولي لغتي ... لكم منها العروض والتفاعيل وما يحشر فيها من جائز وغير جائز ، ولي منها جدول يسارع مترنما نحو الشاطىء ، فلا يدري ما اذا كان الوزن في الصخور التي تقف في سبيله أم القافية في أوراق الخريف التي تسير معه ، لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة ، ولي منها ما يتكبر عن رثاء من مات وهو في الرحم ، ويأبى مديح من يستوجب الاستهزاء ، وتهنئة من يستدعي الشفقة ويترفع عن هجو من يستطيع الاعراض عنه ، ويستنكف من الفخر ، اذ ليس في الانسان ما يفاخر به سوى اقراره بضعفه وجهله لكم لغتكم ولي لغتي .. لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب ودمعة في جفن المشتاق ، وابتسامة في ثغر المؤمن ... واشارة في يد السمح الحكيم ... أقول لكم انما الشاعر رسول يبلغ الفرد ما أوحاه اليه الروح العام ، فان لم تكن هناك رسالة فليس هناك من شاعر .. أقول لكهان النظم والنثر عاطفة وفكر وما زاد على ذلك فخيوط واهية واسلاك متقطعة (١) .

تلك هي دعوة جبران الى التجديد ، فمن نسج على منوالها ونهج على آثارها فهو المجدد . أما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين بدون ارادة ولا عاطفة ، وهو بذلك يجعل اللغة جامدة وشخصية معدومة .

وطالب ميخائيل نعيمة بترجيح الالفاظ على المعنى ، ولم يؤمن ايليا ابوماضي بسلطان اللفظ أو الوزن في القصيدة العربية فقال :

---

(١) بلاغة العرب في القرن العشرين ص ٥٥ لمحيي الدين رضا .

لست مني أن حسبت الشعر ألفاظا ووزنا
خالفت دربك دربي وانقضى ما كان منا
فانطلق عني لئلا تقتني هما وحزنا
واتخذ غيري رفيقا وسوى دنياي مغنى (١)

واستطاع ايليا أبو ماضي أن يملأ الشعر بكثير من النظرات والتأملات الفلسفية ، فأنشأ جريدة (الطلاسم) التي ضمنها نظرته الى الحياة والاحياء والاشياء ، وكتب قصائد أخرى تفيض بهذه النزعة على نطاق واسع مثل قصيدة (المد والجزر) ، وألف العقاد ديوان (عابر سبيل) ، وحاول أن يحدث به تجديدا في الشعر العربي ، وينزل الشعر من السماء الى الارض ، فوصف وجهات الدكاكين واصداء الشارع وعسكري المرور وكواء الثياب وسلع الحوانيت في يوم البطالة والمصرف والفنادق . وقال لا الرياض وحدها ولا البحار ولا الكواكب هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة واستجاشة الخيال ، والنفس التي لا تستخرج الشعر الا من هذه الموضوعات كالجسم الذي لا يستخرج الغذاء الا من الطعام المتميز المستحضر أو كالمعدم الذي يظن أن المترفين لا يأكلون الا العسل والباقلاء (٢) .

وترجم بعض القصائد عن الانجليزية فترجم لا طلع الصباح عند شكسبير في مسرحية روميو وجولييت مع بعض التصرف ، كما ترجم العرض كذلك عن شكسبير ، والقدر عن بوب . ورأى العقاد أنه لا بد من النظر الى جمال القصيدة كلها ، لا الى جمال البيت بمفرده ، وشاركه في هذه النزعة المازني وعبد الرحمن شكري ، وظهرت آثار الثقافة الانجليزية واضحة جلية في شعر كل منهم ، الا أن هذه المدرسة كانت أقرب الى النقد منها الى الشعر ، كما أحسن الدكتور طه حسين وصفها (٣) . ثم قامت مدرسة علي محمود طه ومن لف لفه من الشعراء الذين نهلوا من الثقافة الاوربية . وبعض الناس يرمي علي محمود طه (بتغريب) الشعر ، غير أن بعض النقاد يحمدون له هذا النوع ، ويرون شعره تشريفا للشعر العربي ، ورياضة للذوق الشرقي على الوان جديدة من الادب لم تألفها اللغة العربية .

---

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف .
(٢) ديوان عابر سبيل لعباس العقاد ص ٤ .
(٣) محاضرات الدكتور طه حسين العام الجامعي ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ م

تدعو هذه المدرسة الى التجديد في الموضوعات ، فكتب زعيمها عن الجندول وعن خمرة الرين والقمر والعاشق وما الى ذلك ، كما تدعو الى التجديد في الأوزان والموسيقى واستخلاص بعض المعانى عن فرلين ورمبو وبول فاليرى وغيرهم من الشعراء الرمزيين الذين اغرم علي محمود طه بالنقل عنهم وترجمة شعرهم . وفى وسط هذه التيارات المتعددة من الدعوة الى التجديد ، وقف خليل مطران ليجد سبيله بينها فى صلابة وثبات واطمئنان . فاذا عرفنا ان الخليل أصدر الجزء الاول من ديوانه لاول مرة عام ١٩٠٨ ونشر أغلبه في الصحف والمجلات قبل ذلك ، قدرنا كيف أن دعوة مطران الى التجديد كانت تسبق كثيرا من الدعوات الاخرى ، بل انها كانت أساسا لكثير من الدعوات بعد ذلك .

استهل مطران دعوته الى التجديد ببعض مقالات نشرها في المجلة المصرية والجوائب ، منها هذا المقال الذى جاء فيه (اللغة غير التصور والرأى ، وان خطة العرب فى الشعر لا يجب حتما أن تكون خطتنا بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا آدابنا وأخلاقنا وعلومنا ، ولهذا يجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم وان كان مفرغا فى قوالبهم محتذيا مذاهبهم اللفظية (١) ..

وظل مطران يدافع عن دعوته بحرارة وفى صبر وايمان بها ، ويرسل القصائد بين الحين والحين في مذهبه الجديد ، ولما أصدر ديوانه أصدره ببيان موجز أوضح فيه رأيه فى الشعر . فشعره حر ليس بعبد لا تحمله ضرورات الوزن (٢) أو القافية على غير قصد الشعر . يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد بل ينظر الى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه ، والى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها مع عمق التصور وابتكار الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه على قدر .

وأعلن فى صراحة غير هياب ولا وجل ولا متلعثم ولا متردد ، ان شعر هذه الطريقة .. هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا . ولم يكن خليل مطران فى دعوته الى التجديد يهدم القديم ويحطم الآثار الأدبية التليدة ، انما كان يستمد منها ما يتمشى مع دعوته الى

---

(١) المجلة المصرية يوليو ١٩٠٠ م

(٢) سيأتى هذا الرأى أيضا في صفحة ٢٨ .

التجديد ويحتفظ بأصول اللغة ولا يفرط فى شيء منها الاما فاتهعلمه .

وكتب مطران فى نوفمبر ١٩٣٣ مقالا بمجلة الهلال يعلن فيه رأيه فى الشعر العربى ويبين فيه جهوده فى سبيل التجديد ، يقول : « أردت التجديد فى الشعر منذ نعومة أظفارى ، والقيت دونه ما لقيت من عنت ومناوأة ، وليس هنا محل وصف للآلام التى عانيتها ، ولا للبواعث التى انبثقت منها نوازع الذين حاولوا قطع السبيل على بضع سنين . أردت التجديد فى الشعر ، وبذلت فيه ما بذلت من جهد عن عقيدة راسخة فى نفسى ، وهى أنه (١) فى الشعر كما فى النثر شرط لبقاء اللغة حية نامية. على اننى اضطررت مراعاة للأحوال التى حفت بها نشأتى الا أفاجيء الناس بكل ما كان يجيش بخاطرى ، وخصوصا ألا أفاجئهم بالصورة التى كنت أوثرها للتعبير لو كنت طليقا ، فجاريت العتيق فى الصورة بقدر ماوسعه جهدى وتضلعى فى الاصول واطلاعى على مخلفات الفصحاء .

وهذه الدعوة تشبه الى حد بعيد دعوة الشاعر الفرنسى اندريه شينيه André Chenier (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤) الذى دعا الى صياغة شعر قديم للتعبير عن فكر جديد (٢) .

Faisons des vers antiques. Sur des Pensées nouveaux

ودعا الى استخراج رحيق شعره من زهرات للاقدمين لا تزال تفوح بالعبير بين طيات الفكر الانسانى والى اضاءة جذوة الشعر من مشاعلهم الوهاجة اللماعة فكتب مراثيه Elegies على غرار الشعراء الرومانيين القدماء ثم طبعها بطابعه واضفى عليها روحه ، ونظم Boculiques (ريفياته) مستقاة من النبع اليونانى وكساها بوشى من شعوره واحساساته . غير أن مطران ما لبث فى دعوته للتجديد حتى قال (أريد أن يكون شعرنا مرآة صادقة لعصرنا فى مختلف أنواع رقيه . أريد كما تغير كل شيء فى الدنيا أن يتغير شعرنا .. مع بقائه شرقيا .. مع بقائه عربيا .. مع بقائه مصريا .. وهذا ليس باعجاز) (٣) .

---

(١) اى التجديد .

(٢) A.N.K.A. Bulletinde l'Amicale P.30 Un article Par Dr. Hassan El-nouty

(٣) مجلة الهلال نوفمبر عام ١٩٣٣ .

مظاهر التجديد فى شعر الخليل

١ ــ القصيدة عند خليــل مطران وحدة كاملة لا يحذف منها بيت ولا يقوم بيت على بيت • وكان البيت فى القصيدة العربية وحدة مستقلة بذاتها • ولما نهض الشعر العربى بعــد العصور المظلمــة التى مرت على الآداب العربية ، سار الشعراء على نهج اسلافهم القدماء فلما جاء خليل مطران خــرج على هذا المنهج ، فأخذ ينظم فى موضــوع واحد وصــارت القصيدة عنده مرتبطة الاجزاء ، ومثــال ذلك قصيدة السور الـكبير فى الصين وقصيدته (قلعة بعلبك) وقصيدته (الخمرة) (واللبن والدم) و (فتاة الجبل الاسود) وغيرها •

٢ ــ من الانصاف للأدب أن نقول : انخليل مطران قادحركة جديدة فى تاريخ الآداب العربية ، وأنه قد حول مجرى الشعر العربى من الذاتية الى الموضوعية ، فالموضوع عند مطران يظل مخيما على القصيدة من أولها الى آخرها ، ويشيع فى كل بيت من أبياتها • وقد حارب مطران الظلم فى كثير من قصائده مثل قصيدة (اللبن والدم) •

٣ ــ يتناول مطران الفكرة البسيطة فى شعره بحذقه ومهارته فاذا هى تستوى قصــيدة عصــماء من الشعر تطرب النفوس ، ومثــال ذلك قصيدة (عين الأم) التى تناول فيهــا فكرة انعكاس الصور فى العين فخلق قصة فنية رفيعة جميلة التصاوير •

٤ ــ يعتبر خليل مطران بحق أول شاعر استطاع أن ينظم الملحمة بأدق معانى هذه الكلمة Epos فقصــيدته (نيرون) (١) أكبر آية على هذا التجديد ، وقد نظمها من بحر واحد ، ويربو عدد أبياتها على اربعمائة بيت • وضمنها سيرة هذا العاهل الجبــار ومخازيه ومفاسده وطغيانه ، وصور مأساة حرق روما تصويرا صادقا مثيرا ، ولمطران قصيدة أخــرى طويلة بعنوان (الجنين الشهيد) اعتبرها بعض النقــاد الياذة العرب فى القرن العشرين ويربو عدد أبياتها على ثلثمائة بيت •

٥ ــ يعتبر مطران مجدد أدب البالاد Ballad فى الشعر العربى، وهى الحـكاية المنظومة المتعددة المقــاطع والتى كان يتغنى بهــا أحيانا •

---

(١) لشوقى قصيدة طويلة في الاحداث التى ألمت بمصر منذ القدم حتى العصر الحديث تقع في ٢٩٠ بيتا ومطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء ... وحداها بمن تقل الرجاء
ضرب البحر ذو العباب حواليها ... سماء قد أكبرتها السماء

وقصيدة (الطفلان) من هذا الطراز ، وكان يتغنى بها فعلا الشيخ سلامه حجازى وجاء فيها :

مر حين والصغيران على ... ما وصفنا من وداد وصفاء

كلما شـبا عن الطوق حلا ... لهما ذاك التصافى والولاء

***

وكثيرا ما جـرى أن مثلا ... عرسا جامع أسباب الصفاء

مزجا النفسين فيـه قبلا ... عن هـوى عف نقى واخاء

***

ولقد قال لها فى سـحر ... أبواها للتلهى بالـكلام

«من تريدين شريك العمر؟» ... فأشارت بيـد نحو الغلام

***

ضربت بينهما شبه الحجاب ... عفة البنت وقل الملتقى

وانقضى عهد التصابى والدعاب ... وقضى الأهـلون أن يفترقا

٦ ــ كانت بعض قصائد مطران يشيع فيها روح الحزن أو الملانكوليا Melancholy أو مرض القرن • وهذه النزعة من النزعات الرومانتيكية البارزة فى شعر الرومانتيكيين الفرنسيين مثل (الفرد دى موسـيه) الذى قال (المرء طفل معلمه الألم) وقال كذلك ، (لا شىء يسمو بنـا الى العظمة كما يسمو الألم) ، وظهرت هذه النزعة فى شعر الرومانتيكيين الانجليز مثل لورد بيرون الذى تنضح آناشيده الى مارى شاورث وشرلوت هرليج وسارا صوفيا وكارولين لامب بالحب والأسى • وهذه النزعة عند مطران تظهر فى بعض قصائده الشعرية مثل قصيدة المساء والاسد الباكى •

٧ ــ لم يكن جديد مطران منفصلا عن التراث الادبى القديم ، ولم يقطع الخليل صلته بأسلافه ، فنظم فى التهانى والرثاء والمديح ، وقد أشار مطران فى صدر الجـزء الاول من ديوانه الى أنه جمع فى هـذا الديوان ما يمثل مذهبه وما لا يمثل هذا المذهب • ولو أننا عرفنا طبيعة مطران وقدرنا صلته بالناس وبالمجتمع لأدركنا مدى تضحيته بفكرته الخاصة فى هذه السبيل •

وكان الخليل يدعى الى حفلات الرثاء والتكريم ، فكان مضطرا الى القاء الشعر مسوقا الى ذلك بما بينه وبين أصحاب الدعوة من صـلة

متينة أو صداقة عزيزة . ومن هنا ظهر البون الشاسع والفرق الكبير بين قصائد مطران . بل انه نفسه قال في حديث له مع الهلال (عندي نوعان من الشعر شعر الطلب (يريد المناسبات) في المدح والرثاء ونحوهما ، وهذا لا يكلفني مجهودا لاني لا أعتني في اتقانه فأكتبه كيفما يتفق . والشعر الآخر الذي يمثل مذهبي ...)

٨ – يعتبر الخليل من أعظم الشعراء تصويرا للطبيعة واجلاء لمواضع الفتنة ومنابت الجمال ، وقد تمثل في بعض قصائده مذهب (الحلول الشعري) حيث يحل الشاعر في مظاهر الطبيعة وتحل فيه مظاهر الطبيعة كما في قصيدة المساء . وهو وصف للطبيعة يقف في مصاف هوجو ووليم ورد زورث (William Wordsworth) الذي يعد من أكبر شعراء الطبيعة في الأدب الانجليزي . وكان منذ حداثة سنه يميل الى السفر مشيا على الاقدام ، ويحب مثل مطران الوقوف طويلا أمام الشمس أثناء الغروب .. وبيرس شللي الذي أحب تقلب السماء وخيالات السحاب وشعاع القمر والضوء السريع وانكسار الاشياء في الماء ، واكتشف وجود زهرة البنفسج بين اعواد القصب والفاف الخمائل .

٩ – كان مطران واسع الثقافة مطلعا على الأدب الغربي ، ولذلك جاءت معانيه في بعض الاحيان مستمدة من أدب هوجو ولامارتين والفرد دي موسيه ووليم شكسبير . وبذلك ارتفع بمعانيه أحيانا الى الذروة وسما على شعراء عصره ، وطعم الأدب العربي بلون جديد من المعاني التي لم يألفها الشعر العربي .

١٠ – ترجم مطران بعض الروائع المسرحية الى اللغة العربية ولم ينظم المسرحية لاعتقاده أنها تحتاج الى مقومات فنية غير متوفرة في شخصه غالبا ، غير أن قصصه الشعرية مثل العقاب ووفاء والجنين الشهيد تمثل عنصر الدراما Drama أروع تمثيل ، كما تصور خواتمها المأساة أصدق تصوير ، وبذلك كان بعض أدبه تراجيديا ممتازا . كما نظم مطران بعض الحوار الشعري مثل قصيدة بين عروسين وهي نموذج لالقاء ديالوج شعري على المسرح .

١١ – كان الخليل يريد ان يكون الشعر عصريا يتمشى مع روح العصر الحديث ، ويعتقد ان الحضارة الراهنة تتميز بالسرعة ، واستخدام قوى الطبيعة ، واستغلال خيرات الارض ، وكشف الغامض من أسرار الكون ، وكان يعجب بشاعر بلجيكي ، تشعر وأنت تقرأ له بأن دخان المصانع يغمرك وصوت الحركة يدوي في اذنيك .. وحركة السيارات والقطارات

والآلات الضخمة فى المعامل وضجيج المدينة يقع فى قلبك . وقد صور الخليل كثيرا من صور النشاط الاقتصادى والعمرانى فى البلاد ، واعطى لنا صورة حية عن مصانع المحلة الكبرى تتراءى لنا فيها صور النهضة الاقتصادية الوثابة التى تشرف البلاد ، وتمجد العمال المصريين، وترفع شأن الصناعة المصرية ، وتصور قصيدة (أشعة رنتجن) مدى تقدم العلم ..

١٢ ـ ابتدع مطران منذ عام ١٩٣٢ طريقة جديدة فى الرثاء وهى ان يجعل قصيدة الرثاء أشبه بترجمة حياة الفقيد ويتناول كل فترة من فترات حياته بالوصف والتحليل وهذه الطريقة لم تكن معروفة عند الشعراء فى الادب العربى من قبل فى قصائد الرثاء . وانما الرثاء عندهم ذكر محاسن الميت .

١٣ ـ لم يتقيد مطران بالقافية الواحدة فى شعره ، انما نظم فى أوزان عديدة ، وله محاولات فى كتابة الشعر المنثور كتلك القطعة التى كتبها فى حفلة تأبين المرحوم ابراهيم اليازجى ونشرها فى الجزء الأول من ديوانه ، وقد قال ذات يوم (أنت تعرف أن قيود القافية فى القصيدة العربية مرهقة وكثيرا ما وجدتها عقبة فى اطراد الفكرة . ان الفن ينضج فى جو من الحرية ، وهذه القيود الثقيلة قيود القافية الواحدة والوزن الواحد تتعارض مع حرية الفن ، على أن للقدماء طريقتهم ، فمالنا لا نحاول أن تكون لنا طريقتنا ؟ هناك أكثر من طريقة واحدة ، والذهن البشرى لا يعجز عن الابتكار ، وظاهر أن أسلوب الشاعر يتأثر بالاوزان والقافية ، ومن هنا نجد أن التجديد الذى أنشده فى نظم المرثية لن يكون كاملا فى أسلوبه ، غير أنى سأجتهد وسع الطاقة فى أن أدخل على القديم ما يلحقه بالجديد ، وتلك آخر التجارب التى أعالجها من هذا القبيل ، وبعد ذلك سأصنع الجديد فى الشكل والوزن والقافية وفى المعانى أيضا) (١) .

ومن يتأمل ديوان مطران يلاحظ أنه لم يكن عبدا لنظام القصيدة العربية(٢) انما كان يعالج كثيرا من الاغراض بأوزان عدة وقافية متغيرة ، فشجع بطريقته هذه عددا كبيرا من الشعراء على التحرر من قيود القديم، والخلاص من اطار الشعر العربى التليد .

١٤ ـ قد يخلق مطران قصة طريفة من أجل تفسير اسم شائع ويثير

---

(١) مجلة كل شيء ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٣٣ .

(٢) أشار الى هذا فى صفحة ٢٠ .

بها التقدير والاعجاب ، ومثال ذلك قصيدته فيسبب تسمية (يوسف افندى) وقصيدته (هند) فاسم هند من أشهر الاسماء التى اختارتها العرب لفتياتها وشاعت فى دواوين الشعر قديمها وحديثها ، ولا سيما فى القصائد الغزلية ، على أن الناس لم يتبينوا فى يوم من الايام سببهذه التسمية ، فبقى سرا مكتوما فى طيات الدهور واكناف الحقب . الى أن ظهر خليل مطران وكشف النقاب عنه ، فذكره فى قصيدة من قصائده ، وهى من النحو الجديد الذى نحاه فى ابتكاره . وهذا الابتكار يدل على سعة الخيال ورحابة الافق واتقاد الذهن وصفاء القريحة .

١٥ ـ شهد بتجديد الخليل زملاؤه من الشعراء فقال شوقى (لا يسعنى الا الثناء علىصديقى خليلمطران صاحب المنن على الأدب، والمؤلف بين أسلوب الافرنج فى نظم الشعر وبين نهج العرب) ، كما قال حافظ ابراهيم شاعر النيل (فهو طليعة أولئك الذين خرجوا عن أفقالتقليد، وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربى للخيال الاعجمى وافسحوا فيه للقصصوتصوير الحوادث ، وطوفوا لسرد وقائعالتاريخ ففتحبذلك فتحا جديدا شنفيه الغارة علىأهلالحفاظ والتمسك.) (١)

١٦ ـ لايسوق مطران القصة الشعرية على سبيل الرواية فحسب ، انما يرمى من ورائها الى مغزى عظيم ، كقصيدة مقتل بزرجمهر التى ترمى الى الثورة على الاستعباد وقصيدة (الجنين الشهيد) التى تصور ضحية انسانية ، وثمرة الجريمة، وموقف المجتمع منالساقطات . وهو أشبه بالكاتب المسرحى المعروف هنريك ابسن فى استخدام هذه الموضوعات فى مسرحياته ، حتى ثار عليه رجال الكنيسة ، غير انه ظل يدافع عن مذهبه الجديد فى ثبات وايمان ، ومن ابرز مسرحياته فى هذا الميـــدان مسرحية (الاشباح) .

١٧ ـ كان أول مهام الشاعر هو الاهتمام بلغته وتجويدها ومعرفة مفرداتها تمام المعرفة ، ومتى تمكن من لغته واصبح خبيرا بأسرارها ، كانت الاداة الاولى التى يستخدمها فى التعبير عما يجول بفكره ويخالج نفسه أداة سليمة . ومن هنا تبدأ واجباته . واجبات الشاعر الحقيقى فى ان يستعمل عقله وفكره بقوةليبتكر ويفتن ويستغلحسه وشعورهليخلق معانى سامية نبيلة ، واغراضا واضحة ذاتية ، ومشاعر دقيقة شخصية لا أثر فيها للتعمل والمخالسة ، وآثارا مطبوعة بطابعه فيها ذوب نفسه

---

(١) مجلة سركيس ١٥ من فبراير عام ١٩١٣ ص ١٠٨

وروحه وفكره، مع قوة الديباجة الفصيحة وروعة البيان العربى. وبهذا وحده يحاكى العرب ببقاء الأصل السليم ، ويجارى الغربيين فى اتجاهاتهم من غير أن يغير على آثارهم ويدعيها لنفسه، أو أن ينقل ويترجم ويقلد بصورة باهتة مكشوفة فيها ألوان صارخة مفضوحة، فيأتى شعره مهلهلا لا شخصية فيه ولا ذاتية له ، بعد أن شاع فيه الترقيع ووضحت معالم السرقات الأدبية .

الفصل الثالث : مدرسة خليل مطران

وجدت المدارس الشعرية فى الادب منذ القدم ، والمدرسة الادبية تضم أفرادا معينين لهم مذهب خاص فى التفكير والتعبير ، ولكن لا يمنع ذلك مطلقا من أن يكون لكل فرد من هؤلاء اصالته الخاصة التى تميزه عن أفراد مدرسته · ولكل مدرسة قائد أو زعيم هو الذى يبتدع طريقة صياغة الشعر ، فينهج الشعراء نهجه ويلفون لفه · والشعراء الذين تأثروا بشعر خليل مطران ومذهبه في نظمه كثيرون ، فمن الفنون التى نبغ فيها مطران وأصبحت مهمة بارزة في شعره ، القصص الشعرى · وقد لف كثير من الشعراء لفه ونهجوا نهجه فى نظم القصص الشعرية ، مثل الشاعر ابراهيم رمزى الذى نظم عام (١٩٠٠) قصائد شتى فى الاغراض القصصية ولا سيما منظومته (سيرة يوسف الصديق) التى نظمها شعرا فى اثنتى عشرة قصيدة من أروع الشعر القصصى العربى · ولو رجعنا لشعر نفر من شعراء القرن العشرين مثل نقولا رزق الله وجدناه نظم منظومة تسمى (كليوباترة) ، ونشرها عام ١٩٠٠ وهى من الاسلوب العصرى الذى استحدثه الخليل · وكان نقولا يعتبر نفسه من أخلص تلاميذه .

ومن هذه المنظومة :

تأمل كرافائيل وارسم فهذه	دنانا كبستان وأنت المصور
صف الجو والافلاك والارض والسما	وما تظهر الأيام منها وتضمر
ترنم ببيت الشعر تنعش نفوسنا	فنحن ومن فى الشرق تصغى وتكبر

ونظم نقولا رزق الله (١) قصيدة أخرى تسمى (عرس فى معركة) ، عقب ثورة البكس فى الصين وهى من اللون القصصي الذى اشـــتهر به مطران . وتحاكى قصة (فتاة الجبل الأسود) التى نظمها مطران . فبطلة القصة فى كلتا القصـيدتين فتاة شجاعة باسلة تحمـل السـيف للدفاع عن بنى وطنها ضد الاعداء • وتدور قصة (عرس فى معركة) حول فتاة تيمت بحب فتى وسيم ، وكان أبوها يعمل فى ألمانيا ، ثم نقل الى السفارة الصينية ، فاضطرت الى قطع الصلة بينها وبين هذا الفتى ، ولم تكد تصل الى الصين حتى اندلعت نيران الثورة هناك ، وهب الصينيون فى وجه الأجانب يرفعون راية العدوان ، وخرجت الفتاة الى شوارع « بكين » تقذف النار فى صدور الأعداء دفاعا عن نفسها ولكنها لم تلبث أن وقعت أسيرة فى أيدى الصينيين الذين حاولوا أن يسيئوا اليها ، لولا أن ظهر على حين غرة فارس مقدام خلصها من براثن الصينيين • ولم يكن هذا الفارس المقدام سوى حبيبها الاول الذى وصل الى هذه الديار مع كتيبة من الكتائب القادمة من أوربا •

وقد صور نقولا رزق الله بسالة الفتاة احسن تصوير حين قال :

بينمـــا كانت الشـــوارع فى با ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌   كين تكسى بحـــلة قرمـزيه
نسجتهـا اعضـاء ميت قتيـــل   أو جريح مسـتهدف للمنيـه
ومرائى السماء ســـودا يغشيـــ   ـها دخان القذائف النـــاريه
برزت للعـــــــداة بكر رداح   تتجـلى كأنهـــا حـــوريه
تقذف النار من يديهـــا فير تـــ   ـدون عنها بأوجـه مشـويه

واختتم القصة بهذه الابيات :

هى كانت مناه لمـــا تردى   برضاه المـلابس العســـكريه
فدنا لا يرى قيـــادة غـير الـ   حب بالطوع والخضـوع حريه
ونجـــا بالفتاة من ربقـــة السـ   ـبى الى حفلة الزواج الهنيـة
فاستظلا منهـــا برحمة أيـد   شـأنها الرفق انهـا والديه

---

(١) نقولا رزق الله : شاعر اديب مترجم لبناني المولد رائق الاسلوب مبلح الديباجة يرمى في شعره على اختلاف مواضيعه الى حكمة بالغة أو غاية اجتماعية . تربى في ربوع لبنان ثم هاجر الى مصر فكان أول من انشأ المجلات القصصية منها مثل مجلة (المسامرات) وكان يملك مطبعة يطبع فيها ما يترجم من قصص او ما يقدمة اليه الادباء . وله فضل كبير في نشر القصص البوليسية كقصص شرلوك هولمز وارسين لوبين . وهو فضلاً على ذلك شاعر ممتاز مات خلال الحرب العالمية الاولى .

سر ذاك الزواج غير العروسـتين أبا صـالحا وأما نقيه
ورفاقا في الحرب كانوا جنودا ثم صاروا من بعـدها جمعيه
نسأل الله أن يبارك عرسـا قـام بين المعـارك الدموية

وقد انتشرت القصة فى شعر كثير من الشعراء غير نقولا رزق الله فى مصر والشرق العربى ، نذكر منهم شبلى ملاط ومعروف الرصافي والياس أبو شبكة وخير الله الزركلى وخليل شيبوب وبشارة الخورى، كما انتشرت فى شعر كثير من شعراء المهجر فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، مثل الشاعر الياس فرحات (١) الذى كتب قصة شعرية عنوانها (كل حر فى دولة الظلم جان) وتدور حول موضوع وطنى وحوادث غرامية وطنية وتفصح عن النقمة على الاستعباد والاستبداد واتقاء الظلم والبغى والعدوان على النحو الذى فعله مطران فى بعض قصائده (مثل فنجان قهوة) ٠ وللالياس فرحات قصة شعرية أخرى عنوانها (الشهيدان) تدور حول الحب والخلود وللشاعر رشيد أيوب (٢) قصة شعرية تشبه الى حد بعيد قصة (وفاء) التى نظمها خليل مطران ، وروى فيها حكاية عوادة فقيرة هام بها رجل من أرباب القصور فأبت أن تزف اليه فى بداية الأمر لما بينهما من فرق كبير فى الوسط ومستوى المعيشـة ، ولم يزل يهمس بألحان الحب فى أذنيها ، حتى رقت له وقبلت الزواج منه ٠ غير أن العلة اشتدت عليها والمرض نال منها فاستوفت أنفاسها وفاضت روحها الى بارئها ٠ فحزن الفتى عليها حزنا شديدا واستبدت به حرقة الجوى وتهالكت عليه نوائب الدهر ، ولم يلبث حتى نعى فى أثرها وانتهت قصة حبها بهذه المأساة الفاجعة ٠

نقول : لرشيد أيوب قصة على هذا المنوال تسمى قصة (ابنة الكوخ)

---

(١) الياس فرحات : من شـعراء المهجر في أمريكا الجنوبية من بلدة كفر شـيما التى أنجبت للأدب العربى آل اليـازجى اللغويين . ولد عام ١٨٩٣ وغادر وطنه عام ١٩١٠ مهاجرا الى البرازيل ملتمسا الرزق طالبا العيش . اشـترك مع توفيق صنعون في انشـاء مجلة (الجديد) التى ظهر أول اعدادها عام ١٩١٩ وله ديوان مطبوع في سان بولو عام ١٩٣٢ ٠

(٢) رشيد أيوب : يعد أيوب من السابقين الاولين بالهجرة الى العالم الجديد في أمريكا الشمالية ومن السابقين الى تأسيس الرابطة القلمية في نيويورك عام ١٩٢٠ ولـد بقرية « بسكنتا » وطن ميخائيل نعيمه عام ١٨٧١ وفي عام ١٨٨٩ رحل الى باريس حيث اقام فيها ثلاث سنوات ثم تركها الى مانشستر حيث اشتغل بالتجارة ثم هاجر الى أمريكا الشمالية . وله ثلاثة دواوين « الايوبيات » « وأغانى الدرأويش » و « هى الدنيا » والاول من أقدم ما نشر من شعر المهجر والثانى عام ١٩٢٨ أما الثالثة فنشر عام ١٩٣٩ .

وتدور حول فتاة نماها الريف بظهره حتى شبت وترعرعت وغدت فتنة طاغية في الريف جمعت كل اشتات الفتنة ففيها ضلال لعقل وهدى لجنون ، هام بها فتى فقير وهامت به ، غير أنها في احدى جولاتها بين المروج تعرفت بشاب غني وسيم ووقعت في شراك حبه ومناها بسكنى القصور المنيفة وكره اليها حياة الكوخ البسيطة ، ولم يزل يرسل معسول الاماني وجميل الوعود في أذنيها حتى انصاعت لأمره وتركت حبيبها المملق الفقير · غير أن الدهر كان لها بالمرصاد فلم تمر أيام حتى تدله الشاب الغني بحب غيرها وانصرف عنها انصرافا تاما فتولى الفتاة سقام ونحول خبا نور عينيها وعراها ذل وهزال شديد .

ولرشيد ايوب قصة اخرى بعنوان (هل تذهبين) لعله استقاها من قصيدة مطران (هل تذكرين) ووجه فيها الخطاب الى هند · يقول رشيد أيوب :

يا هند قد فسد الزمان وراج قول المرجف
فهلم نذهب في الظلام الى الجبال ونختفي

هل تذهبين

وهناك(١) نسرح مثلما الـ أطيار تسبح في الفضا
متوكلين على المقادر صابرين على القضا

كالزاهدين

يا هند ··· هذي نجمة غراء لامعة الجبين
غمازة فكانها تدعو اليها العاشقين

هل تذهبين

ونظم الشاعر القروى (رشيد الخورى)(٢) قصة شعرية عن العصفور

---

(١) الشعر العربي في المهجر . محمد عبد الغنى حسن ص ١٦٦

(٢) رشيد الخورى : هو الشاعر القروى ولد عام ١٨٨٧ بقرية البربارة من جبل لبنان ورث الشعر عن أبيه الذى كان له في النظم والنثر بعض الاجادة تعلم في قريته في مدرسة الفنون الامريكية بصيدا فالكلية السورية الانجيلية ببيروت . فالكلية الشرقية في زحلة فمدرسة الامريكان في سوق الغرب . هاجر من وطنه الى البرازيل عام ١٩١٣ باغراء من عمه . يمتاز شعره بالرصانة وصحة الاسلوب وبلاغة العبارة وله ديوان ضخم يسمى (ديوان القروى) يقع في ٦٢٨ صفحة وتبرعت بطبعه الجالية العربية في المهجر .

والباشق والانسان وهي على النحو الذى فعــله لافونتين في خرافاته ، وايزوب في حكاياته ، ومطران في قصصه ، كقصة (العصفور) · وليس بمستبعد أن يكون هذا الشاعر تأثر بالخليل فى اتجاهاته . فردد هذا النغم الخالد (هل تذكرين) فى قصيدته (بين آلحقول) (١) ·

هل تذكرين لقاءنا في روضـــة سحرية والطير تهتف باســمك
والشمس تلقي في المروج ظلالنا عمدا لتحفظ للمروج برسمك
ثم ارتمينـــا بين احضـــان الربى تملين فيالغصن (٢) الندىكاسمك

أما خليل شيبوب (٣) فقد ظهر تأثره بمطران واضحا ملموسا ، ولما أصدر شيبوب ديوانه (الفجر الاول) صدره المؤلف بمقدمة بقلم خليل ، شرح فيها رأيه في الشعر العربى عامة وشعر شيبوب خاصة ، وكانمما ذكره فى هذه المقدمة ، ان الناطقين بالضاد فى هذا الأوان فريقان فى تصور كنه الشعر ، أحدهما يراه على المذهب المعروف كما وضع أصله في الجاهلية وعدل بعض الشيء في صدر الاســـلام ، ويأبى له الا أن يكون على النحو والاسلوب اللذين كانا منذ البدء بالوصفوالترتيب حتى الساعة، وربما لم ير هذا الفريق بأسا من استمرارهما هكذا الى قيام الساعة .

أما الفريق الثاني فيرغبمع الحرص علىمجاراة سائر الأمم منغربية ومن شرقية غير عربية اللسانعن النوع الذى آثره الفريق الاولمن الشعر محاكاة أو تقليدا أعمى كما يقولون ، وهذا هو النوع الذى نعته الغــلاة بالأوربى أو الاعجمى وأسموه بالعصرى ولم تبد فى أدابنا منه الا طلائع قليلة كان آخرها ديوان (الفجر الأول لخليل شيبوب) وفي هذاالديوان، ليست الضالة المنشودة بيتا يختار أو مفردات يبالغ فى اختيارها أو عبارات يبحث جد البحث عن وسائل الافتنان فى عرضها ، انما تقرأ الشعر فى هذا الديوان على حد تعبير مطران ، لتعرف ماذا أراد الناظم أن يكون من المعنى الجديد أو يصف من الاحساس على مثال غير مسبوق ·

وفي هذا الديوان قصة شعرية لشيبوب بعنوان (سليم وســلمى)

---

(١) الشعر العربى في المهجر . محمد عبد الغنى حسن ص ٢٣٠ .

(٢) لعل اسم الفتاة التى التقى بها في الروضة « غصن » .

(٣) خليل شيبوب : أديب وصحفى وشاعر ولد في لبنان وجمع في تعليمه بين الثقــافة العربية والثقافة الفرنسية . هاجر الى الاسكندرية حيث اشترك في تحرير جريدة البصير وهى الجريدة العربية الوحيدة في الاسكندرية ومؤسسها الاســـتاذ امين شميل . عمل محررا لفترة من الوقت في جريدة الاهرام . له ديوان (الفجر الاول) وبعض أشعار وطنية توفي عام ١٩٥٣، وعمره ستون عاما .

وهذه القصة الشعرية كتبت على غرار شعر الخليل ، بل ان حوادثها تشبه الى حد بعيد تلك الحوادث التى تجرى فى قصص مطران ، فهى تروى قصة فتاة حسناء بارعة الجمال تسمى (سلمى) أولعت بحب شاب رقيق الحال يسمى سليم ، ولكن والد سلمى كان ينكر العلاقة بين ابنته وهذا الشاب ، وأبى عليها أن تتزوج منه لانه كان رجلا قاسيا مستبدا برأيه يعتقد أنه لابد للأب أن يأمر ولابد للابن أن يطيع ، فلما قصت سلمى على أبيها قصة علاقتها بهذا الشاب زمجر غاضبا ووقف متوعدا وأوسعها سبا وجعل نهارها ظلاما ودفعها الى الزواج من رجل غنى برغم أنفها ، وكان رجلا فاسد الاخلاق سيىء السيرة قبيح السريرة اتخذ له خليلات من بنات الهوى ، وكان يقضى وقته فى الحانات وعلى مناضد الميسر ، حتى اذا ما آب الى داره سقى سلمى كئوس العذاب مترعة وطفق يقص عليها سفاهاته بين الأزقة ومباذله فى المواخير .

وقد نزلت هذه الحادثة على سليم نزول الصاعقة فمضى حاملا فى قلبه جرح هواه ، وكذلك كانت سلمى حزينة تنتابها الآلام والأسقام ، وأخذ يصرعها الداء الدفين حتى هد قواها وفاضت روحها الى بارئها .

وحينئذ ذهب سليم الى أبيها وقد استبد به الغضب واشتد عليه الضيق وعزم على قتله شر قتلة والانتقام منه أشد انتقام . ولكنه بدلا من أن يغمد سيفه فى صدر أبيها أغمده فى صدره هو وخر على الارض صريعا يتخبط فى بحيرة من الدماء وهكذا طويت آخر صفحة من قصة الحب الخالدة .

وقد أهدى شيبوب هذه القصة الشعرية الى مطران وصدرها بقوله :

الى نادرة العصر   وعلم النظم والنثر
مجدد الصناعتين   ونابغة القطرين

خليل مطران

وقال فى الهدية :

هذه قصة قلبين   فضى كل شهيدا
وقليل لهما أن   يذكرا ذكرا حميدا
فى قصيد لست بالآمل   أن يدعى قصيدا
فلذا قلدتها اسما   آثر الصيت بعيدا
صنعتها فى قالب   لولاه ما كان جديدا

فغدا في ذاك عندي مبدىء الفضل معيدا
أن يعرهـا نظرة منه فقد صرت سعيدا (١)

فخليل شيبوب يهدى هذه القصة الشعرية الى مطران ، لأنه يعرف انه رجل التجديد ولولاه ما صاغها في هذا القالب الجديد ٠ ومن الملحوظ في هذه القصة الشعرية أن شيبوب لجأ الى وصف البطلة في القصة على النحو الذى فعله مطران في قصة (وفاء) او قصة (العقاب) ، قال شيبوب :

وسلمى فتاة تشبه الشمس طلعة لها وجنة كالورد كلله الندى
وعيناى انسانا هما قد تلألآ كنجمى سماء يبرقان زمردا
وجيد كأن الفجر شق عموده وحلاه بالنجم المضيء وقلدا
وشعر كعقد التاج زين رأسها فان اسبلته انساب تبرا مجعدا
وقد كغصن الزنبق الغض ناعم اذا راوحته الناسمات تأودا
وتمشى كأن الارض ليست تمسها لها قدما ظبى تقلان أميدا
وتضحك ضحكات الطهارة مثلما تجاوب طير في الاراك وغردا
وتبسم عن در نظيم مطلة بوجه لها يزهو لجينا وعسجدا
فيعشقها في صبحه ومسائه وفى أمسه الماضى ويعشقها غدا
ويعبدها في الخلق والخلق ربه له وفخار ان تجل وتعبدا

وهذا الغزل العرضى الذى يأتى فى ثنايا القصة الشعرية يجرى على منهج مطران فى الغزل فى ثنايا قصصه ٠

تأمل وهو يعطى لنا صورة لبطلة القصة فى (عقاب) :

تعلقها حورية حضرية يكاد يكون النور منها تبسما
تراءت معانيها بمرآة قلبه فثبتها فيها الغرام وأحكما
لها شعر كالليل يجلو سواده بياض نهار يبهر المتوسما
وعيناى كالنجمين في حلك الدجى هما نعمة الحياة وشقوتها هما
وأهداب أجفان تخال اشعة مصففة غراء تعكس عنهما
ومنعرج من خالص العاج مارن كأن الهوى قد بث فيما تنسما
وثغر كما شفت عن الراح كأسها يتوجها در الحباب منظما
وخصر اليه ينتهى رحب صدرها وقد دق حتى خيل بالثوب مبرما
فان أقبلت فالغصن أثقله الجنى فمال قليلا واستوى متقوما

---

(١) الفجر الاول لخليل شيبوب ص ١١٧

وظاهر من النموذجين ان كلا من الشاعرين يلجأ الى وصف بطلة القصة وصفا حسيا ملحوظا . فيصف شعرها ووجهها وثغرها وسيرها. حتى ليخيل للقارىء ان شيبوب يحـاول أن ينهج نهج مطران نهجا تاما . وقد أعجب أمير الشعراء أحمد شوقى بالقصص فى شعر شيبوب وهو ثمرة من ثمار مطران فقال :

شـعر جرى من جنبات الصـبا	يا طيب واديه وطيب المسـيل
فيه روايات الصـبا والهـوى	تسلسلت أشـهى من السلسبيل
شـعر ديوانك باكـورة	وفجرك الأول نـور السـبيل
الشـعر صنفان فبـاق على	قـائله أو ذاهب يوم قيـل
ما فيـه عصـرى ولا دارس	الدهر عمـر للقريض الأصـيل

وقال مطران فى سيدة تحلى أصبعها بخاتم فصه من الياقوت :

حذار لقلبك من لحظهـا	فما فيه من رحمـة للمحب
ألم تر فى يدها خاتمـا	به قطرة الـدم فى شكل قلب

وقال مطران كذلك فى عقد تحلى به حسناء جيدها

أما التى قلده جيـدها	فما أبدع الجيد وما قلدا
فمن حسنها وتلاوينهـا	جمد ماء الدر ما جمـدا

ثم قال خليل شيبوب فى العقد الأسود

لبست فى الجيـد عقدا أسودا	كلمـا أبصره القلب يذوب
انمـا السلك هوى متصـل	ولآلى العقـد حبـات القلوب

فمواضع الفتنة التى تستهوى الاستاذ تستهوى تلميذه ، والقلوب صيغت فى خاتم مطران كما صيغت فى عقد شيبوب . وهكذا يبـدو الشاعران وكأنهما ارتويا من معين واحد وخضعا لخيال واحد . واذا كان مطران يتغنى فى شعره بحب الأم وينظم القصائد العدة فى فضلها، حتى اذا ما غابت عن الدنيا رثاها بزفرة حارة حزينة ، فكذلك كان شيبوب . نظم بعض قصائده عن الأم وكتب قصيدته (نظرة الى الماضى) فى رثائها واستمد بعض معانيها من شعر مطران ، وصور فيها ما تكابده الأم من الآلام أثناء الحمل والوضع والفطام واستهل قصيدته بقوله :

ان قلـب الام كنـز	كله حـب وسـعد
وهو بين النـاس رمز	فيه لطف الله يبـدو

وقال فى رثائها :

قومى انظرينى بعد موتك عانيا　　يا أم انى مت موتا خافيا
لما فقدت لندبك العبرات

وأغلب قصائد شيبوب وحدة كاملة وليس البيت فيها هو وحدة القصيدة على نحو ما كان يفعله الشعراء الجاهليون والاسلاميون ، انما يجرى على النمط الذى استحدثه مطران فى الشعر العربى ٠

وقد نظم شيبوب فى عزلته قصيدة حزينة تشبه الى حد بعيد تلك القصائد التى كان ينفثها مطران فى عزلته ، مثل قصيدة (العزلة فى الصحراء خير من المعيشة فى المدينة) وكتب شيبوب قصيدة (شجون) فى عزلته على نمط قصائد مطران فقال :

ولكننى أبلت شعورى عزلتى　　فهأنذا كالعود يذوى فيحطم
أيا عزلتى انضيت ماء شبيبتى　　فصرت على مهلى أشيب وأهرم
ولا عمل الا دواة ومكتب　　فانثر ما بى من شقاء وانظم
واقتل كتبى قارئا وكأنما　　يحوطنى منها خميس عرمرم

وشيبوب متأثر بموسيه ، كما ان مطران متأثر بموسيه ٠ فكتب شيبوب بعض قصائده مصدرة بأقواله مثل قصيدة السكران التى صدرها بقوله « عار عليك أنت التى بدأت فعلمتنى الخيانة » ٠ كما صدر قصيدة شجون بقول موسيه كذلك (أنا وحدى والساعة تدق يا للعزلة ٠٠ يا للفقر ٠٠) ، كما أن المتأمل فى شعر شيبوب يلاحظ انه تأثر بكثير من المعانى المستمدة من شعر الفرد دى موسيه وغيره من الشعراء الرومانتيكيين ، كما فعل خليل مطران ، واذا كان مطران ينشد القصيدة فى محبوبة تسمى (هند) تارة و (سلمى) تارة أخرى ، فان شيبوب يجد لذة ما بعدها لذة فى ترديد هذين الاسمين فيؤلف (سليم وسلمى) ويهديها الى أستاذه وينظم فى هند قصيدة عذبة يقول فيها :

حديث كنشر الروض عذب سماعه　　وألفاظك الأنداء منتثرات
اذا نظرت عيناك همت صبابة　　فلله مما تفعل النظرات
وأرشف من فيك الحياة واننى　　تطيل حياتى هذه الرشفات (١)

وجملة القول ان خليل شيبوب تلميذ مخلص لخليل مطران وطالب ممتاز فى مدرسة مطران الشعرية جدير بالذكر والتنويه ٠

---

(١) الفجر الاول خليل شيبوب ص ١٨٢

ومن التلاميذ المخلصين لشعر مطران كذلك الشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى (١) وهو يعترف اعترافا صريحا باستاذية مطران له فى كتابيه انداء الفجر وقطرة من يراع ، وله رأى فى شعر مطران له قيمته ، فهو يقول (الميزة الخاصة لشعر مطران هى نظرته الشاملة للحياة بحيث انه يجد أى موضوع مهما كان تافها فى ظاهره ، صالحا لأن يكون مادة شعرية قيمة . فالشاعر الحقيقى هو الذى يخلق الموضوع الشعرى وليس الموضوع هو الذى ينجب الشاعر ..)

وقد سئل زكى أبو شادى عن آخر قصيدة نظمها فى مصر فقال : انها القصيدة التى وجهها الى أستاذه خليـــل مطران فى الرابع عشر من شهر ابريل عام ١٩٤٦ وقال فيها :

أودع النيل فى توديع شـــاعره … وقد أودع نفسى فى مشـــاعره
وما أقبـــل طرســـا جاء يغمرنى … بالحب الا وقلبى فى خـــواطره
ولا أفارق أســـتاذا تعهـدنى … كمـــا أفارق كنزا من جـواهره
ولا أباعد أوطانا أقدسهـــا … الا وروحى رهين عند شاعره
مطران يامن أناديه بـــلا صـــفة … ففى اسـمه كل ما يغنى كخاطره
هـــذا نشيدى بـلا وزن وقافية … وان تسلسل الحـانا لآسره
أزجيه آخـر ما أزجى ويدفعنى … حب كحبك مشدوه كحـائره
لعل بضعة أعوام سأرقبهـا … تحالف الحظ فى تجـديد زاهره
وعلنى حينما ألقـــاك ثانية … أراك باعث شـــعب من مقـابره

وفى هذه القصيدة اعترف أبو شادى بأستاذية مطران ، وشهد له بالتجديد فى الشعر كما أضاف فى اجابته قوله : أدين فى الروح الادبية

---

(١) احمد زكى أبو شادى : ولد في مصر عام ١٨٩٢ وتعلم في المدارس المصرية ثم رحل الى انجلترا طالبا للعلم عام ١٩١٢ وظل هناك عشر سنوات ظفر في أثنـــائها على اجازة الطب ونال جائزة (و ب) في علم البكتريولوجيا وأسس جمعية النيل في لندن وساهم في تأسيس معهد النحالة الدولي عام ١٩١٩ وهاجر الى أمريكا عام ١٩٤٦ واشترك في تحرير الصحف العربية هناك ، وســاهم في تقديم المحــاضرات بمحطة اذاعة صوت أمريكا . وأسس بأمريكا رابطة منيرفا الشعرية الادبية التى جاءت على غرار جماعة ابولو في مصر ، وله دواوين عدة واوبرات كثيرة منها انداء الفجر والشفق الباكي وفوق الضباب وأطياف الربيع والينبوع واحسان واخناتون والآلهة . توفي عام ١٩٥٥

العامة الى مدرسة (الظاهر) الصحفية منذ عام ١٩٠٥ وهى التى ظهر انتاجها فى صحيفة الظاهر ، وكان منها كثير من أعلام الادب فى العصر الحديث ، وقد شملت من أعلام الادب أحمد شوقي ومحمد كرد علي وعبد القادر المغربى وخليل مطران وعبد الفتاح بيهم وتوفيق رفعت . وأدين فى الروح الشعرية بصفة خاصة الى خليل مطران ثم الى أحمد شوقى بين شعراء العربية . وفى الادب الغربى تأثرت كثيرا بوليم وردزورث وشيللى وكيتس وهينى من الشعراء ، وولز وديكنز وأرنولدبنيت من الادباء . والى ولز ومطران أهديت روايتى الشعرية اخناتون نظرا لنزعتهما الانسانية التى أتعشقها . الاول فى فلسفته الاجتماعية والثانى فى شعره ، وهذا دليل على نوع الثقافة التى كنت أحبها ولا سيما فى الادبين الانجليزى والروسى . وهى بعبارة وجيزة الثقافة الانسانية الصحيحة (١) .

وهكذا كان أبو شادى نفسه يعترف بأستاذية خليل مطران . وقد نشر أبو شادى فى (الشفق الباكى) رسالة وجهها اليه مطران بتاريخ ١٥/١٠/١٩٢٥ يشكره فيها على اهدائه اياه قلما نفيسا من الأبنوس فملأه حبرا وبه كتب اليه يشكره . كما نشر أبو شادى أحد خطابات مطران الحكيمة اليه ، وفيه يقول (وهكذا الدنيا ويا للأسف من مبدئها الى نهايتها . وخير ما فيها ما أكسبنى الاختبار ومعاناة الصلابة من توالى الجراحات) وفيه يقول أيضا :

(هو أن يشتغل الرجل بما هو اليق للرجال . هو أن يكافح فى سبيل مجد فيعز غالبا ويعز مغلوبا . هو أن يكون مثلك يشغف بالمعنى ولكن على أن يكون المعنى المشغوف به لايمثل باحدى صور الأنوثة ، بل يخيل فى مطلب جلل من مطالب نفع الناس وخلود الذكر ...)

أما مظاهر تأثر أبى شادى بالخليل ، فيمكن أن نقول عنها انه تعلم منه أن الشاعر الحقيقى هو الذى يخلق الموضوع ، وليس الموضوع هو الذى يخلق الشاعر ، فنراه يأتي بالمعانى الطيبة فى الاغراض الصغيرة مثل (الشليك الندى) و (رشفة كوكتيل) و (راكبة الدراجة). كما تعلم أبو شادى من مطران أن يحرص الشاعر كل الحرص على التعبير عما يدوى

---

(١) البعثة (نشرة ادارة بعثات الكويت الثقافية) ابريل عام ١٩٥٤ ص ٢٣.

فى أعماق نفسه من أصداء الحياة ، وما يخالجها من وحى هذا الوجود ، على ألا يضيع من ذلك شيئا ما استطاع اليه سبيلا . والخير للشاعر أن يوصم بألف وصمة غاشمة من أن يكون أسير الروح ، عبدا للتقـاليد ، خادعا لنفسه ولغيره ، فعمد كمطران الى تطويع اللغة لأخيلته ومعانيه حتى تؤدى المعانى صادقة وصافية لا تنميق فيها ولا تزويق ، مع محافظته على قواعد اللغة والصرف ، وأرغم الكلمة على الافصاح عن دقائق شـعوره الواسع المترامى ، بعد أن كانت عزيزة متكبرة تذل المعنى اذلالا ولا تكاد تحمل الا نفسها ، وأفسح لخياله المجال فى الانطلاق على الصحيفة عنـد تسجيل الخواطر الشعرية ، تاركا لنفسه الحرية فى اختيار ما يشاء من الالفاظ والحروف الموسيقية ، مهما كان استعمالها جديدا لم يسبق اليه .

وقد حاول كل منهما أن ينقل الى العربية خلاصة الفكر الغربى . كان مطران مثقفا ثقافة فرنسية واسـعة فترجم المسرحيات وأشاع فى شعره معانى موسيه وهوجو ولامارتين . أما أبو شادى فقد كان مثقفـا ثقافة انجليزية واسعة ، فترجم عن ولفرد جبسون (صياد الطيور) ، كما ترجم عن هنرى لونجفـلو (التـوأمان) وترجم (المرأة) عن أوليفر جولد سميث .

وقد كتب أبو شادى قصيدة من أروع قصائده أطلق عليها (الوحدة) وتجرى على نمط قصيدة مطران (المسـاء) وان كانت من بحر مختلف وقافية أخرى وجاء فيها :

وحدتى ودعت أطيافى وقد غاب وداعى
أنا كالصـخر ولكن ميت دون نفـاع
أطفأت أحلامى الايام اطفـاء الشعاع
لم تعـد لى ذكريات لمحب أو شـجاع
كل ما حولى خواء فهـو زادى ومتاعى
سئمت نفسى غرور العيش والحب المضاع(١)

وقد حاكى أبو شادى الخليل فى نقل الشعر من سماته العـامة العربية الى سماته الاوربية العامة ، وعلى وجه خاص من جهة الخيـال الشعرى ، ووحدة القصيدة فى الشعر . وظهرت فكرة (الحلول الشعرى) التى تمثلت فى شعر مطران فى بعض قصائده مثل قصيدة (المساء) واضحة جلية فى شعر أبى شادى فقال فى احدى قصائده :

---

(١) الينبوع لاحمد زكى أبو شادى ص ٦٤

يا كون أنت مثـــالي … وفي حياتي حيـــاتك
ألســـت مرآة نفسي … وانـنـــــي مرآتـــــك
وفي جمـــالك روحي … وملء روحي صفـاتك
وفي نزوعي وحبـــي … ما عبرت لمحـــاتك
أراك سرا جميـــــلا … تبثـــــه آياتـــــك
أراك حسـنا نبـيـلا … تـــزفه أوقاتـــــك
أراك حبـــا جليـــلا … والحب كالحسن ذاتك
وفي خفـــوق فؤادي … ووجـــــده أهاتك
وفي حنيـــني ودمعي … ما مثلت عبراتـــك
فأنــت كـــلي وبعضي … وفي حياتي حياتك(١)

ففي هذه القصيدة تتراءى نزعة (الحلول الشعرى) واضحة جلية وهي من النزعات القوية التى فاض بها شعر مطران وتجلت ناطقة معبرة تستهوى النفوس استهواء وتختلب القلوب اختلابا ·

و (المنديل) العطرى ··· منـــديل الحبيبة يثير فى نفس مطران ألوانا شتى من المشاعر وضروبا من الخـــواطر ويهيج فى نفسه كوامن الاشواق ولواعج الهوى فينظم قصيدة يناجيه ، وهى مسطورة فى الجزء الاول من ديوانه ومطلعها :

أعد أيهـــا المنديل ذكرا محببـــا … وأنطق به الطيب الذى فيك مطربا
وأطنب بما تحكيه عنهـــا فانه … اذا ساء أطنـــاب حببتك مطنبا
فذلك ذكر الحب أنت تعيده … بل العمر أشهى ما يكون وأعذبا

وقد نظم مطران هذه القصيدة بعـد أن عثر على منديل حبيبته فى صوانه وهو يقلب ملابسه ، كما نظم أبو شادى قصيدة أخرى بعد أن لقى منديل حبيبته معه بعد سنوات ·

مرت ســـنون عليـــه … وعطـــره لا يضـــيع
كأنمـــا العطر فيـــه … ذكرى الغرام الصريع
أو روح ماضي وفـــاء … مضى مضى الربيـــع
فأنشـــق الحب منـــه … كبسم زهر بديـــع
وأشـــتكي فى جفـوني … وهو الحزين السميـــع
كأنمـــا هـــو قلبى … والعطر فيه النجيـــع

---

(١) ملحمى لأحمد زكى أبو شادى ص ١٣.

يشكو بصمت بليـــغ شكوى المهين الوديـــع
من بعـــد ما نسيته نسيان حبى الرفيـــع
فحـــاله حال نفسى ومـــاله من شـــفيع
ومـــاله من عـــزاء غيرى فـــلا أستطيـــع
وما العـــزاء يبـــقى على الشقاء المنيع (١)

وكما نظم مطران بعض القصص الشعرية وأضاف الى ألوان الشعر لونا جديدا من الادب العربى ندر فى الشـــعر العربى ، نظم أبو شادى بعض الاوبرات الشـــعرية مثل أوبرا (اردشير) المقتبسة من ألف ليلة وليلة والتى قدمتهـــا على المسرح فرقة ترقية التمثيل العربى ، وأوبرا (احسان) و (بنت الصحراء) اللتين قدمتهما فرقة السيدة منيرة المهدية وأوبرا (اخناتون) المستمدة من التاريخ المصرى القديم ، وأوبرا (الآلهة) وهى أوبرا رمزية من ثلاثة فصول صدرها بقـول الحكيم كونفشيوس « لست أبالى بمن يضع ضرائع النـــاس اذا كنت أنا أضع أغانيهم » . وأوبرات أبى شادى محاولة جريئة فى سبيل خدمة المسرح ، وقد انتقى فيها تقاطيع الوزن الذى يصلح للتلحين الروائى . وهى على نصيب طيب من التفوق والامتياز ، لولا ان بها بعض الابيات السقيمة وتترع بذكر الآلهة والتغنى بأسمائها مما قد لا يستسيغه القارىء العربى .

وأعجب المستشرق الانجليزى المعروف (جب) أستاذ الادب الانجليزى بمعهد اللغات الشرقية بلندن بهذه الاوبرات ، ووجد فى تأليفها جهودا فى سبيل ترقية المسرح المصرى ، وتمنى ألا يذهب نظمها عفـــاء ، بل ينتهز الفرصة أصحاب الفرق المصرية ويمثلونها فيخدمون بذلك الغرض الشريف الذى رمى اليه المؤلف .

ولعل الشاعر عبد الرحمن شكرى (٢) كان من تلاميذ مطران وطلاب مدرسته الشعرية فى مطلع حيـــاته الادبية قبـــل أن يذهب الى انجلترا

---

(١) الشفق الباكى لاحمد زكى أبو شادى ص ٧٠١ .

(٢) عبدالرحمن شكرى : شاعر مصرى مجيد من طليعة الشعراء في العصر الحديث ، بعد تركه المكتب بدأ يتعلم اللغة العربية في مدرسة بورسعيد الابتدائية عام ١٨٩٥ وكان له ميل أدبى منذ الصغر ، وكان يحفظ كثيرا من الشعر واطلع في مكتبة ابيه على مجموعة كبيرة من الكتب والدواوين منها كتاب « الوسيلة الادبية » للشـــيخ المرصفى فأعجب بشعرائه ثم انتقل الى مدرسة رأس التين الثانوية وبعد انتهائه من مدرسة المعلمين سافر في بعثة الى انجلترا عام ١٩٠٩ حيث تعمق في دراسـة الادب الانجليزى وجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية وله ديوان مطبوع .

ويتأثر بالمذهب الطبيعي الانجليزي ويقتبس بعض المعاني في شعره من اللورد بيرون وبيرس وشيللي أعلام المذهب الرومانتيكي في انجلترا ، وفي مطلع ديوان شكري قصة شعرية بعنوان (١) (كسرى والاسيرة) تبين ظلم كسرى وطغيانه على النحو الذي فعله مطران في (مقتل بزرجمهر) ، وتدور هذه القصة حول أسيرة حاول كسرى أن ينال منها ويسلب شرفها ولكنها نفرت منه وأبت عليه ذلك اباء ، ولم يستطع كسرى بما له من ملك واسع ونفوذ عظيم وسلطان تعنو له الوجوه وتخضع له الجباه أن يجعلها تذعن لأمره وتخضع لمشيئته ، ولم تزل في ابائها حتى تسامع بها أهلها فهبوا خفافا سراعا لانقاذها من براثن ذلك الذئب البشري .

والقصة طريفة في أسلوبها برغم بساطتها ، وأحسن فيها شكري الرواية والصياغة وفيها يقول :

رام كسرى من هواها بغية	فحسا من حسنها حتى انتشى
وأذلت شـــهوة مقبوحة	منه حتى رام ما فـوق الرضى
أكلت احشـــاءه والجـنة	كولوج النار في عود الغضا
جاء كسرى شـــاهرا اطمـاعه	فنضا من حلمه ما نضا
سامهـــا كل خسيس كارث	قاتل اللذات يزرى بالنهى
ورماهـا بوعيـــد حاسر	شرس الارهاب مرهـوب الأذى
ساءه أن قـد تأبت فاستحقت	نقمة في طي ذياك الابا

ويصور شكري غضب عشيرتها بعد ذلك فيقول :

فأتاها نبأ من قومهـــا	انهم عافوا لذاذات الكرى
أو تجول الحرب في ميدانهـا	كمجال الطيش في عهد الصبا
أو يكون السـيف في أعدائهم	معملا يودى بهـــام وطلى

ونظم شكري قصة شعرية أخرى بعنوان (نائم ويقظان) صور فيها الهوى مرخيا لواحظه مطبقا جفنه فعل المترصد ، ثم جاءت الغانيات الى الحديقة يملأهن الغرور وقد ارتدين الثياب الجميلة الانيقة ، ومشى الغرام اليهن فارتعن منه وتعثرن في أذيالهن وعدون عدوة خائف متطلع ، فكأنهن أزهار منثورة أو خطرات النسيم أو كواكب السعد ، اللهم الا فتاة عـلا محياها ماء الصبا ، فلم تفر ، وظنت ان جمالها ينأى بهـــا عن سلطان الهوى ، ولكنه قال لها : ان الغرام لا يمكن أن يعصى له أحد أمرا ، وكم من

---

(١) ديوان عبدالرحمن شكري ص ٣ .

فتاة ظنت انها لن تخضع لسلطانه ، فباتت مسهدة الجفن لا يرنق جفنيها طيف الرقاد ·

أنظر الى تلك الصورة (الحركية الجميلة) التى رسمها لنا شكرى فى قصيدته :

فمشى اليهن الهوى بترقب   مشى الشجاعة فى فؤاد القعدد
فعثرن فى أذيالهن تخوفا   منه وسوين المطارف باليد
وعدون عدوة خائف متطلع   ان لم يكن متزايلا فكأن قد

ووصف شكرى للعذارى ووصف جولانهن بين المروج ، وتراءى الشبح لهن ، أشبه بقصيدة مطران (يوسف أفندى) التى صور فيها قصة العذارى الفاتنات اللائى انطلقن بين المروج ، ثم بدا لهن شبح ارتعن منه · هو شبح حارس المرج ، غير أن شكرى جسم (الغرام) على النحو الذى يلجأ اليه بعض الشعراء فى الادب الغربى · ووصف شكرى الليالى فقال :

ما لحداد الليل لم يخلع   وما لعين الأفق لم تهجع
لعله يفرق من هيبتى   أن يخلس الانداء من ادمعى

ولعله أخذه من قول مطران :

والليل داج كثيف كأنه فى حداد

على ان عبد الرحمن شكرى لم يندفع مع تيار شعر الخليل ، فلم يلبث ان رحل الى انجلترا ولم يلبث ان تأثر بالشعر الانجليزى ، وجاء الى مصر لينفى عن نفسه تأثره بالشعراء المعاصرين · وجاء الى مصر ليعلن رأيه فى قصائده التى نشرت فى مجلة الرسالة فيقول :

أقول انها (أى قصائده) ليس فيها احتذاء لطريقة خليل ولا تقارب من طريقة أبى شادى فى الذوق ، أما التقارب بينى وبين الاستاذ العقاد فى الثقافة الشعرية فسببه اطلاعنا على ثقافة واحدة ··(١) · وعندى ان شكرى تلميذ لمطران فى اشعاره الاولى من حيث الاتجاه الشعرى والاغراض الفنية ووحدة القصيدة وتنويع المعانى · أما فى اشعاره الاخيرة فهو متأثر بعض التأثر بالادب الانجليزى فى التفكير والخيال وبشعر الاقدمين مثل المعرى وأبى تمام وابن المعتز والشريف الرضى ·

---

(١) المقتطف عام ١٩٣٩ شهر مايو ص ٥٥٠

ومن مدرسة مطران الشعرية كذلك الشاعران الشقيقان « الياس فياض »(١) ونقولا فياض(٢) · والياس شاعر يتدفق شعره طبعا وسلاسة لطيف التخيل ، واضح المنهج ، رقيق اللفظ ليس في نظمه تعسف ولاتعمل ولا غموض كأنما استعار صفاء شعره ورقة ألفاظه من صفاء باله ونقاء قلبه(٣) نظم في أكثر موضوعات الشعر فأجاد ، وترجم جملة حسنة من الروايات فكان نثره كشعره من السهل الممتنع ·

والياس نزوع الى القصة الشعرية كمطران ويفتن في ذلك ماوسعه الافتنان · حكى قصة نسيم عاشق في احدى قصائده ، تدله بحب ابنة شيخ من شيوخ القرى في لبنان وكانت على قدر كبير من الجمال وحظ عظيم من الفتنة ، فكان يداعبها شتاء وصيفا ويحيل قر الشتاء الى جو فاتر لطيف ويحيل حر الصيف الى هواء منعش خفيف ، واذا استشعر انقباضا في صدرها هرع الى البستان وحمل لها من الطيور الشوادي أرق الانغام والألحان ومن شذى الازهار أعبق أريج وأعطر عبير · واذا كان في يديها كتاب وانتهت من تلاوة صفحة من صفحاته ساعدها النسيم على تقليب الصفحة دون احتياج الى مد البنان ، واذا استحوذ عليها النعاس زحزح عنها الستار وقبل ثغرها ووجنتيها بقبلات ولهى · ولكن الايام لم تلبث أن عصفت بحبه ، وتقدم شاب يخطب الفتاة وكان على حظ عظيم من الغنى والثراء · فقبلت الفتاة الزواج منه فاشتد غضب النسيم · وهبت ليلة الزفاف ريح جامحة عاتية فأطفأت الشموع · وحاول تجفيف الكئوس، وقرع الناقوس حتى يثير في الحفل جوا حزينا أسيفا ، ولم يجد عمله شيئا ، اذ تم الزفاف برغم أنفه فمضى هائما في الارض بعد أن طوى جرح قلبه المكلوم · وبعد عامين رجع الى الفتاة فألفى طفلا جميلا يرقد في مهاده ويبكي وبجواره أمه فتلاشت قواه وجثا قرب الطفل يهز السرير في رفق كالغلمان ·

---

(١) الياس فياض : أديب وشاعر لبناني عاش مدة طويلة في مصر وأخرج بعض الروايات المترجمة عن الانجليزية والفرنسية للفرقة المصرية مثل رواية (لويس الحادي عشر) و (أوديب الملك) و (هملت) وبعض روايات أخرى عن المسرح الفرنسي . رحل الى مسقط رأسه في لبنان حيث أصبح وزيرا للمعارف في فترة من الفترات . توفي منذ حوالى ١٥ عاما .

(٢) نقولا فياض . طبيب لبناني حمل راية الادب والشعر في لبنان بعد أخيه . عمل موظفا بالحكومة اللبنانية . له قصائد شتى في غاية الروعة في نقد المجتمع والوطنية والقومية ولوم الحكومات الظالمة وهو لا يزال على قيد الحياة .

(٣) مختارات الزهور (عنيت بطبعها ونشرها مجلة الزهور) ص ١٢٥ عام ١٩١٤ .

والقصة طريفة كل الطرافة وتجرى على النسق الذى أولع به مطران وهى من نوع (البالاد) ، لولا أن الشاعر لم يلجأ الى التلوين فى القوافى والتنويع فى الاوزان ، وهى على أية حال رائعة النظم جميلة المعنى تأمل قوله :

عبث النسيم الجسور بشعر ... ناعم فوق رأسها الفتـــان
فتدلت أطراف الشـعر من فو ... ق عيون سود وخـد قان
ورأى صاحبى النسيم جمـالا ... ما رآه من قبل فى انسـان

وتأمل قوله كذلك :

فاذا الليل كان ليـل شتاء ... يخز البرد فيه وخز السنان
صار حـالا الى هواء لطيف ... فاتر وفق نسـبة الميزان
واذا اليوم كان يوما شـديدا ... يلذع الحيـة فيه كالنيران
جاءها من ذرى الجبال بنفح ... منعش الروح منعش الجثمان

وتأمل قوله كذلك :

ولـكم وقفة له ليس تنسى ... عند ذاك السرير ذى الاركان
وقد استحوذ النعاس عليهـا ... وتولى الكرى على الاجفـان
يجتلى حسن معصمين اضـاءا ... فوق ملموم صدرها المـلآن
ولـكم زحزح الستار وأدنى ... ثغره فوق ثغرها الظمـآن

ولالياس فياض بعض المخمسات التى تجرى فى نظمها ومعناهـا ومنهجها الشعرى على غرار خليل مطران ، مثل منظومة (ليالى الصيف فى مصر) وهو الموضوع الذى اقترحته مجلة سركيس • فنالت الجائزة هذه القصيدة وجاء فيها :

يا حبذا النيل على ضوء القمر ... وحبذا الغبوق فيـه والسحر
ركبته كأننى علـى سـفر ... فى ليلة ماعابها غـير القصر

كذلك الصفو قصير العمر

مع غـزال من بنى الافرنج ... مهفهف القـد كثـير الغنج
ينظر من سود صـحاح دعج ... وجرت فيهـا كلمـا أرجى

مع روضة وخمرة وشعر

والريح تسرى حولنـــا بليلا تبـــل من صدورنا الغليـــلا
كأنهـــا آس أتى عليـــلا وقد أبحناها اللمى تقبيـــلا
فما اكتفت بل عبثت بالشعر

والنيـــل يجرى تحتنا غزيرا تهـــزنا موجـــاته سرورا
كمـــا تهز غـــادة سريرا قد نام فيه طفلهـــا قريرا
في مأمن من عاديات الدهر

والقصيدة فضلا على أنها منظومة من المخمسات التى ولع بها مطران وأعادها الى الشعر العربى بعد تلاشيها في الاندلس ، تميل الى ذوق مطران فى الجمال ، وقال فى اهداء باقة أزهار الى سيدة افرنجية :

هذه تحفـة الرياض الى من فاح فى الشرق طيبها وتأرج
هى بين الحســان زهرة أنس حسنها بالحيـــاء منها مسيج

وقال مطران فى فتاة أمها عربية وأبوها فرنسى :

جمـــالك زاد روعتـــــه مـــزاج الشرق والغـــرب
وزانت فتنـــــة الافر نج فيـــه عنـــه العرب

وحكاية (تقبيل الزهور) و (هز السرير) موجودة فى كثير من شعر مطران ، وهى شائعة في شعر هوجو وموسيه وغيرهما من أعلام الادب الاوربى .

ونقولا فياض شاعر رقيق التشبيب حلو التغزل موسيقى التراكيب وهو كشقيقه في مذهبه الشعرى حتى لو نظم احدهما قصيدة ووقعهـــا الآخر لصحت نسبتها اليه ، وقد ترجم قصيدة اذكريني Rappelle toi لا لفرد دى موسيه جاء فيها :

اذكرينى كلما الفجر بـــدا فاتحـــا للشمس قصر الذهب
واذكرينى كلمـــا الليل مضى راكضـــا بين جنـــود الشهب
واذا ما صدرك ارتج عـــلى نغـــم اللذات وقت الطرب
أو دعـــاك الظـــل يامى الى صارخ فيـــه يناديك : اذكرى

فشعر نقولا فياض ينبع من المعين الذى نهل منه مطران وهو المعين الفرنسى . معين موسيه وهوجو ولامارتين وغيرهم . ونظم قصة شـــعرية بعنوان (زهرة بنفسج) حكى فيها حكاية زهرة من زهرات البنفسج نبتت بجوار ساقية ثم استيقظت ذات يوم كأن بها سكرا وقد شربت ندى الفجر وتمنت أن تصعد الى ذرا الجبل وترى جمال الدنيا وتشرف على مباهج

الطبيعة . فحملتها الريح هنا وهناك وأخذت تنقلها من مكان الى مكان فتمشي الهمود في أوصالها وتمنت أن تعود ثانية الى مقرها الاول غير أن الموت كان أقرب اليها من حبل الوريد . والقصة طريفة جميلة من لون شعر أخيه الياس وشعر خليل مطران ومن أبياتها قوله :

فجثت لأول مسرة وبكت ... كالطفل من تعب ومن ذعر
والبرد أفسد لونها كمدا ... من كل مزرق ومحمر
فاصفر ذياك الجبين كما ... ذهبت نضارة ذلك الثغر

وكان نيقولا فياض من أعز أصدقاء مطران ، ولما ازمع ترك الاسكندرية والعودة الى استيطان لبنان وجه اليه مطران قصيدة من عيون شعره مطلعها :

يا ابن لبنان عد الى لبنان ... نازلا منه في أعز مكان
مصر تهدى اليه من هو أهدا ... ه اليها تهادى الخلصان
ليس بدعا وفى القلوب صفاء ... ما يرى من تقارض الجيران
لست أوصيك كيف يوصى حكيم؟ ... وله دان ذانك الاصفران

ويمكن أن نعتبر (بشارة الخورى) (١) أو «الأخطل الصغير» تلميذا لخليل مطران في وحدة القصيدة وفي الاغراض الجديدة في الشعر وفي تحليل المشاعر الى أدق صورها وابتكار الخيال العذب اللطيف ، وسيطرت على(بشارة الخورى) نزعة تشاؤمية في شعره مثل تلك النزعة الظاهرة في شعر مطران أو مايمكن أن نطلق عليها (مرض العصر) مثل قول بشارة :

عشت شقيا ولم أبال ... ولم يمر الهنا ببالى
اعلل النفس في نهارى ... وألزم الدرس في الليالى
رق شعورى فرق جسمى ... ورق دينى ورق حالى

واتخذ (الخورى) من هند وحيا والهاما كمطران ، فنظم بعض القصائد في التغزل بها ، وحكى لها قصة الليل والبوم ، وهى تجرى على

---

(١) بشارة الخوري : ولد عام ١٨٨٣ في لبنان ومزج في تعليمه بين الثقافة العربية والغربية . ذكى الفؤاد ، عصبى المزاج . سريع التأثر . أصدر في بيروت عقب الاعلان عن الدستور في تركيا جريدة (البرق) وهى جريدة اجتماعية ادبية انتقادية وكان ينشر فيها شعره كما نشر في (الزهور) وله ديوان (الهوى والشباب) الذى يضم باقة من القصائد الجياد والشعر الغنائى الممتاز »

نهج مطران في الشعر وتشبه الى حد بعيد قصة مطران (ان من البيان لسحرا) غير أن بطل القصة عند مطران شاعر تلتف حوله العـــذارى يستمعن الى غنائه العذب وصوته الرخيم ، وبطل القصة عند الخورى بلبل تلتف حوله الاطيار تنصت الى تغريده الحلو البهيج فيقول :

يا هند قد ألف الخميلة بلبـــل ... يشدو فتصطفق الغصون وتطرب
هو شـــاعر الاطيـــار لا متكبر ... صلف ولا هو بالامـــارة معجب
تتعشق الازهار عـــذب غنـــائه ... فاذا شدا فبـــكل ثغر كوكب

ولبشارة الخورى قصيدة في التغنى (بلبنان) تذكرنا بمذهب خليل مطران في المعانى والخيال ، ومنها :

ايه لبنـــان والجـــداول تجرى ... فيـــك بردا فتنعش الظمـــآنا
ايه لبنـــان والنسيم عليـــل ... يتهادى فيعطف الأغصـــانا
حبذا السفح معبدا لصغار الـ ... ـطير تشدو لربهـــا الالحانا
خافقات الجناح للشمس آنا ... خافقـــات الفـــؤاد للحب آنا

أما قصيدة مطران فى (حزين) وهو مصيف مشهور بلبنان فمنها :

أما الهـــواء فمـــا أرق اذآ سرى ... بين الصـــنوبر عابق الأردان
والمـــاء ما أصفى موارده وما ... أشفى نداه لمهجـــة الحران

كما قال فى قصيدة طرابلس الشام :

وان شجا مصر صوتى فهل يكون سوى ـ صوتى العزيزين سوريا ولبنان

وليس بمستبعد ان يكون الخورى أو غيره من الشعراء اللبنانيين والسوريين تأثروا بشعر الخليل ، لانهم كانوا يعتبرونه رســـول الشعر فى وادى النيل ، وكانوا يتلقفون قصائده بين الحين والحين ، وينشرونهـــا فى مجلاتهم ، وكانت مجلة (الزهور) التى يصدرها انطون الجميل ، وتقى الدين تنشر بعض شعره . وكان الخورى نفسه يصدر فى بيروت جريدة (البرق) وملأها أدباء فمهدت له الشهرة الواسعة . وكان ينشر بعض قصائد عذبة لمطران . فلا يستبعد أن يكون قد تأثر بمذهبـــه الشعرى فى تأليف القصيدة والخيال .

ومن أروع أخيلة الخورى فى وصف فتاة عند الفرنجة :

رقدت ترتشف الكرى مقلتاها ... مثلما ترشف العطاش المياها
صاعدات انفاسها هادئـــات ... كصلاة الاطفال طهر شـــذاها

تحلم الحلــم لؤلؤيا فتمليــه طهورا على الصبــا شــفتاها
وازاح النسيم عن صدرها الثــو ب فلاحا ولا تقــل نهــداه
شك في نفسه المــلاك فلا يد رى اذا كان حبها أم أخاها (١)

ونظم الخوري بعض القصص الشعرية ، مثل قصة (هنــد وامها) والريال المزيف . واذا كان مطران يستمد بعض قصصــه الشعرية من الادب العربي مثل (بنت شيخ القبيلة) و (ان من البيان لسحرا) ، فان الخوري ينحو هذا النحو كذلك ، اذ نظم قصة (عروة وعفراء) وقصــة (عمر ونعم) وقال في قصيدة هند وامها :

اتت هند تشكو الى أمهــا فسبحان من جمع النــيرين
فقالت لها ان هــذا الضحى اتاني وقبلني قبلتــــين
وفــر فلمــا رآني الدجــى حباني من شعره خصلتــين
وما خــاف يا أم بل ضمني وألقى على مبسمي نجمتــين
وذوب من لــونه ســائلا وكحلني منــه في المقلتــين

ونوع بشــارة الخوري في الأوزان على النحو الذى فعله مطران ، فجاءت آية في الروعة والابداع كما ترجم عن الشاعر الفرنسي ســولي بوردوم قصيدة (العيون) و (ماذا أقول له) :

ومن هؤلاء الشعراء (طانيوس عبــده) (٢) وهو عصري المعنى مستعذب اللفظ نظم كثيرا ، وكتب كثيرا ، واكسبته رواياته شهرة بعيدة بين قراء العربية . وأنزله شعره منزلة كريمة بين أماثل الشعراء . وفي شعره يقول مطران :

كم حــكمة رددتها فأعدتهــا ولها رنين مثــالث ومثــاني
ومقامة فصلتهــا ووصلتهــا وصل الفريد مفصلا بجمــان
بفصــاحة ليست لتبقى حاجة في نفسي مطلع الى تبيــان
وسلاسة تروى الغليل كأنهــا قطر الندى في مهجة الحــران

وحاكى طانيوس عبده مطران في تجديد الأوزان وعدم الخضوع

---

(١) الهوى والشباب . للشاعر بشارة الخوري ص ٣٥

(٢) طانيوس عبده : أديب وصحفي لبناني شهير . زامل خليل مطران في الصــحافة وساهم في تحرير جريدة الاهرام ، ألف مجموعة كبيرة من المسرحيــات وترجم عــددا وافرا من الروايات التمثيلية وكان يطبع مسرحياته في كتب شعبية ويبيعها للجمهور بأسعار زهيدة ، وله بعض أشعار جارى فيها بعض المجاراة شعر خليل مطران . توفي عقب الحرب العالمية الأولى .

لنظام القصيدة العربية القديمة ، والمتأمل فى ديوان مطران يلاحظ انه يعجب اعجابا شديدا بالورد فى (العروات) وحمل الازهار وطاقات الورود فى الايدى ولعل طانيوس عبده تأثر بهذه المظاهر وحاكى هذه المعانى فقال .

أتيت فألفيتها ساهره وقد حملت رأسها باليدين
وفى صدرها زهرة ناضره رأيت بأطرافها دمعتين
وقد وقفت دمعة حائره على خدها مثل ذوب اللجين
فقلت علىم البكا والحزن وكيف تبدل ذا الابتسام ؟
فقالت هو الدهر لا يؤتمن فى قوسه منزع للسهام

ففى هذه الابيات ، يتجلى نزوع طانيوس عبده الى التحرر من الاوزان القديمة فى القصيدة واللجوء الى الاوزان المستحدثة والمعانى الطريفة التى زخر بها الشعر فى الادب الغربى ، والتى كانت من المميزات الواضحة فى شعر مطران .

وربما كان الشاعر (ابراهيم ناجى) (١) من مدرسة مطران الشعرية فى الاغراض الشعرية من جهة ، وفى نظم القصص الخيالية أو الواقعية من جهة أخرى ، فنجده فى ديوانه يقرض الشعر عن الظلام والانوار والاحلام السوداء والاحلام الضائعة وشكوك ونسيان وسراب على البحر وآمال كاذبة وبعد الفراق والمساء واذكرينى وما الى ذلك من أغراض تشبه أغراض الشعر الغربى ، وتلك مدرسة مطران الشعرية تحاول أن تصل الى دقائق النفس وتحلل المشاعر تحليلا عميقا صادقا . وخرج ناجى من أسار النظام العتيق للقصيدة فتحرر فى الأوزان والأنغام . وهذه هى دعوة مطران . ومعروف أن بيرون ولامارتين كتب كل منهما قصيدة فى الخريف ولم نعثر فى زهر الآداب أو فى نهاية الأرب أو فى غيرهما من كتب

---

(١) ابراهيم ناجى : طبيب ناجح الا أن ميله الى الادب كان أقوى من الطب فكلف بنظم الشعر وهو فى الثالثة عشرة من عمره . وقد ذكر طائفة من شعر الصبا فى ديوانه « من وراء الغمام » وعكف على الآداب العربية القديمة والحديثة قراءة وبحثا وعلى الآداب العربية وكتب التاريخ والملاحم والقصص وله ديوان «ليالى القاهرة» واشترك مع اسماعيل أدهم فى كتاب (توفيق الحكيم الفنان الحائر) وترجم للفرقة القومية للتمثيل والموسيقى مسرحية (الجريمة والعقاب) من ديستوفسكى وترجم مسرحية (الموت فى اجازة) من الايطالية توفى فى ٢٥ من مارس سنة ١٩٥٣ والشعر عنده النافذة التى يطل منها على الحياة والبلسم الذى يداوى به جراح نفسه .

الادب العربى على قصيدة مطولة فى الخريف كتبت من أجل الخريف ومن أثر مشاعر الخريف .

وقال ناجى فى الخريف مبتدعا فى المعنى والوزن :

أسر فيـــك ؟ انى لســت أدرى ... كل ما فيـك من الأسرار يغـــرى
خطـر ينســاب من مفـتر ثغـر ... فتنة تعصف من لفتـة نحـــر
قدر ينسج من خصلة شـــعر ... زورق يسبح فى موجة عطـــر
فى عباب غامض التيار يجـرى ... واصلا ما بين عينيك وعمرى(١)

ونظم ناجى قصيدة تسمى قصيدة (المساء) على غرار قصيدة مطران فى (المساء) واستمد بعض معانيها منه وجاء فيها :

غـــلة المتـــلهف الصـــادى ... ياآيتى وقصيـــدتى الكبـــرى
مـــاذا تركت لـــدى من زاد ... الا اســـتعادة هـــذه الذكرى
يا للمساء العبقرى ومـــا ... أبقى على الايـــام فى خـــلدى

وما أشبه ناجى وهو يصف ثورة البحر بمطران وهو يصور ثورة نفسه فى قصيدة (المساء) :

صورة للبحر أم صـــورة نفسى ... عندما النفس من اليأس تثـور
قد عـلا الموج وقـد عز التـأسى ... لم يعد الا عبـــاب وصخـــور
زلزل البحـــر عـــلى راكبـــه ... مثلمـــا زلزل قلب ضـــجر
ســـــفر ثار عـلى طالبـــه ... ركب ضنك والمنـــايا ســـفر

ونظم ناجى قصيدة قصصية بعنوان (الاطلال) وهى قصة حب عاثر التقيا ثم تحابا ثم انتهت القصة بأنها هى صارت اطلال جسد وصار هو اطلال روح . غير أن النزعة الذاتية تطغى فى القصة على عنصر الرواية . وهى من هذه الناحية تشط عن مذهب الخليل ، اذ كان الخليل يحرص كل الحرص على عنصر الحكاية ولا يدع نفسه يتكلم ، انما يجعل أبطال القصة وشـخوصها يتكلمون ويتحركون دون أن يفصح عن نفسه ، واستهل ناجى قصيدة الاطلال بقوله :

يا فؤادى رحـــم الله الهـــوى ... كان صرحا من خيـــال فهوى
اسقنى واشرب عـلى اطـلاله ... وارو عنى طالمـــا الدمع روى
كيف ذاك الحب أمسى خبرا ... وحديثـــا من أحاديث الجوى

---

(١) ليالى القاهرة ابراهيم ناجى ص ٢١٢ .

وبساطا من ندامى حلم هم تواروا أبدا وهو انطوى

والجدير بالتسجيل ، ان ناجى لم يظل فى شعره كله أسيرا لمذهب مطران فى الشعر ، انما كان شاعرا رومانتيكيا يعبر عن مشاعره الذاتية أولا وقبل كل شيء ولا يهمه ما اذا كان شعره ينهج مذهب مطران أم غيره من الشعراء ٠

ولا يستبعد أن يكون هناك بعض الشعراء السودانيين قد تأثروا بشعر الخليل فى بعض معانيه ، ونذكر منهم الشاعر (مدثر البوشى)(١) الذى قال فى حسناء تغسل وجهها :

أراك تغسل وجهها كالبدر أو هو أسنى
فهل سمعت ببدر يزيده الماء حسنا ؟ (٢)

وأراد بهذين البيتين أن يحاكى خليل مطران فى قوله :

زانت الرأس بفل هو بالرأس تحلى
ما رأت قبلك عينى وردة تحمل فلا

ويمكن أن نعتبر الشاعر (عزيز ميرزا) (٣) من مدرسة الخليل الشعرية فقد قضى ميرزا فترة طويلة من حياته فى جريدة الاهرام وعاصر الخليل أثناء عمله فى الاهرام ولا يزال يعمل فى الاهرام حتى اليوم ويشرف على تحريره ٠ غير أنه انصرف عن الشعر الى المقال ، وله ديوان شعر طريف يسمى (اليأس والرجاء) نشر فيه نفثاته وخطراته ٠ وهو

---

(١) مدثر البوشي : هو الشيخ مدثر بن الشيخ على البوشي ولد في أم درمان في شهر مارس عام ١٩٠٣ بدأ التعليم في منزله حتى بلغ التاسعة من عمره ٠ نزح الى وادى مدنى فالتحق بمدرستها الابتدائية حيث نبغ على أقرانه فلما أتم الدراسة الابتدائية هناك نقل الى قسم المهندسين في كلية غوردون ثم خطر لوالده أن يلحقه بقسم القضاة الشرعيين فكان له ماأراد وقد ظل يتقلد مناصب القضاء في السودان حتى صار وزيرا للعدل في الوزارة السودانية الاخيرة وله بعض القصائد الجياد ٠

(٢) شعراء السودان لسعد ميخائيل ص ٣٤٤ ٠

(٣) عزيز ميرزا كان يعمل رئيسا لتحرير جريدتي الاهرام ووطني ويبلغ حوالي الستين من عمره من أسرة لبنانية معروفة في لبنان ٠ تعلم في المدارس الفرنسية وعمل موظفا بوزارة المالية المصرية حتى وصل الى منصب كبير ثم انتقل الى السراى الملكية حيث عمل في الادارة الاوربية ، واستقال ليعمل في جريدة الاهرام في خلال الحرب الاخيرة ٠ متضلع في الفرنسية والانجليزية يميل الى الدراسات الاقتصادية والبحوث السياسية وله ديوان من الشعر يسمى (اليأس والرجاء) نظمه في صدر حياته الادبية وهو في دور الشباب ٠

يمثل مذهبا جديدا في الشعر ، وما هو الا أثر من آثار الخليل في نهضة الشعر ، وضمنه الاغراض السامية التى ينبض بها الشعر الغنائى فى الادب الغربى وهو الحب والطبيعة والموت · واشتمل ديوانه على بعض القصص الشعرى مثل قصة (دفع الى الموت) التى روى فيها قصة جندى كان فى جيش الموت ، انتدبته يوما فرقة غير فرقته لمقاتلة العدو ، فلم يطق الشاب صبرا على ذلك ، فهب من مضجعه ليلا وسأل ضابطه الاذن فى الانضمام الى المتحاربين فأبى ، فألح الجندى فذهب الضابط الى القائد العام يسأله الاذن وكان القائد العام مستغرقا فى رقاده فتردد ، ولكنه أيقظه وبسط له الامر فأجيب الى طلبه ولما كان الصباح زحفت الجنود وفيها هذا الباسل · وبعد بدء المعركة بساعتين اصابته أول رصاصة فقضى على الأثر وفى هذه القصة الشعرية يقول عزيز ميرزا :

وما العيش الا افتقـاد ضريح وأجر الـكلال سـكون المنـام

وقد كتب مطران بعض القصائد التى تصور بسالة الجند فى الميدان مثل قصة نابليون وجندى يموت ، كما وصف فى قصيدة (١٨٦٠ــ١٨٧٠) حومة الوغى وصفا رائعا فاتنا ، واذا كان مطران يحبذالتأثربالشعر العربى واقتبـاس أسلوب الفرنجة فى التعبير فان ميرزا يحب الشـاعر الفرنسى سولى بوردوم(١) Sully Prud homme حبا جما وينقل عنه بعض شعره مثل قصيدتى النزاع ولو علمت ·

ومطران ثائر على نظام القصيدة العربية ويرنو الى تجديد شامل فى المعانى والأوزان ، وكذلك ميرزا يطمح الى تغيير المعانى والأوزان ، ويقول : « ان الوزن العربى أشد الأوزان وقعا على النفس غير أن عروضنا تفتقر الى بعض الاصلاح ، وان مشقته جعلت الشاعر ينتهج فى غنـائه الى السـأم والملل · ولا أرى نفسى مغاليا اذا قلت ان كثيرا من قواعد النظم لزوم ما لا يلزم » ·

والتضمين مألوف فى أغلب الاوزان الاجنبيـة ، ولا بأس من نظم

---

(١) شاعر فرنسي ولد في باريس عام ١٨٣٠ ومات ١٩٠٧ وله ديوان من الشعر وعدة وسائل ونظرات في النقد وهو من الشعراء الذين قام المذهب الرمزى على انقاض مذهبهم وكان سولى بوردوم يتجه في مستهل حياته اتجاها علميا الا انه لم يلبث أن اتجه اتجاها أدبيا وقام بنشر كثير من المقطوعات الشعرية وكان يدعو الى ايجاد فكرة في القصيدة ويجيد رسم العواطف الغامضة التى تختلج في الصدور .

قصائد على وزن واحد وقواف مختلفة ، كما ألفته الآداب الاجنبية ، وكم من أبيات لفيكتور هوجو تروقنا لما فيها من تضمين ٠

وقال في وزن جديد في قصيدة (لو علمت) التي ترجمها عن الشاعر (سولي بوردوم) ٠

لو كنت تدرين الأسى بل لو علمت بوحدتي
لجرت دموعك رأفة فبقرب داري قد مررت
بل لو علمت كم ائتست روح بروح دون صوت
فأمام بابي ربما كالأخت حينئذ جلست
بل لو علمت بأن من أحببتها في السر أنت
لوقفت حيرى برهة وبلا اضطراب قد دخلت

ونظم (عزيز ميرزا) قصة الغرور التي روى فيها حكاية طفل وشيخ سارا في الروض ، ثم عرفا أن الحياة متاع الغرور وكتب قصة (مساء في خلوة) روى فيها حكاية شيخ طلب من الشاعر احسانا ٠ وصور هذا البائس في هذه الصورة الوصفية فقال :

بسط الشيخ يدا راجفة قائلا لي اعط يامن أسعدا
وقرته لحية مبيضة وبيسراه عصا توهي اليدا

والقصة على النمط الذى أولع به مطران ، لولا انها قليلة الحوادث وخرج منها الشاعر بحكمة سريعة دون أن يسرف في الرواية والتفاصيل ٠

وكتب ميرزا قصيدة (الغروب) التي حاكى بها قصيدة المساء لمطران وهي مزيج من مشاعر الشاعر وجمال الطبيعة ، وتمثل الحلول الشعرى الظاهر في كثير من شعر الخليل وجاء في قصيدة الغروب(١) ٠

طغت السماء فالعباب كنار وهوت بعد برهة في عياء
كلما غارت بدد النور منها فكأن ضاقت عن شريد الضياء
غمرت فالمساء كان نزاعا ونهار الذرى طويل المساء
ما اختفت حينما العباب علاها بل أضاعت في الماء بعد اختفاء
مثل بلور قد بدت دون لون واضمحلت في اللجة الزرقاء
وشعاع الافق سال رويدا غاشيا وجه البحر بعد السماء
زال في هذا الموج شيئا فشيئا فأغمى نور الموج والطيلساء
وجبت روحي في وجيب فؤادى اذ بدت لى النجوم مثل هباء
ودرار على الذرا زاهيات فتلاقت شهب الذرا والفضاء

---

(١) ديوان اليأس والرجاء لعزيز ميرزا ص ١٠١ ٠

وفي قصيدة (النداء الى النفوس المضطربة) يمازج ميرزا بين الطبيعة والحزن كما فعل مطران في قصيدة المساء فيقول :

ان روحي كمثـل موج فسر في اضطرابي وفي اضطراب الماء
فـكأن يبتغي سوى البحر مهدا صوته في الهيـاج صوت رجـاء
يطلـب البر زاخـرا وهو يفنى في الرمال الشـقية الجرداء

وفي هذا المعنى يقول مطران في قصيدة (المساء) :

شاك الى البحر اضطراب خواطرى فيجيبنى برياحـه الهوجـاء
ثاو علـى صخر أصـم وليت لى قلبا كهذى الصخرة الصماء
ينتـابها موج كموج مـكارهى ويفتها كالسقم فى أعضـائى
والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا كصدرى ساعة الامساء

ووصف مطران صدره كجوف الغار فقال :

الله فى صـدر وهى وتقوست منـه العظـام
خاو كجوف الغـار تملؤه المخـاوف والظـلام

فأخذ ميرزا هذا المعنى وأضاف عليه ثم قال :

فى اليأس روحي ذكرت عيشـها فما عذابها سوى رهبة
عادت كطير في مغار سـما ولم يعـد ثقـل الظلمة
أفاق فيها حائرا جازعـا لم يذكر ما قبل ذى الصـحوة
بعض شعاع كل ما رامه اذا لم يكن يرجو سوى نفحـة

وسيطرت على عزيز ميرزا فى بعض أشعاره نزعة الحزن أو الملانكوليا أو مرض القرن ، كما يسميه الفرنسيون ، وهي تلك النزعة التي فاض بها شعر مطران ، فنظم ميرزا أغاني البلى ، وعيشى ملال والرفات وما الى ذلك من أشعار حزينة ، ولو اننا نظرنا الى الجمعيات الادبية التى ترأسها مطران ودرسنا شعراءها أدركنا مدى تأثرهم بمطران ، مثال ذلك جمعية (أبولو) التى كانت ترمي الى الاهداف الآتية :

١ ـ السمو بالشعر العربى وتوجيه جهود الشعراء توجيها شريفا .
٢ ـ مناصرة النهضات الفنية في عالم الشعر .
٣ ـ ترقية مستوى الشعراء أدبيا واجتماعيا وماديا والدفاع عن كرامتهم .

وقد تولى الشاعر أبو شادى سكرتيريتها الدائمة وأنشا مجلة لتكون

لسانها الناطق واختير الشاعر أحمد شوقي رئيسا للجمعية ، فلما انتقل الى رحمة الله اجتمع الاعضاء في يوم السبت ٢٢ من أكتوبر عام ١٩٣٢ بمقر رابطة الادب الجديد بالقاهرة، واختاروا الشاعر خليل مطران رئيسا للجمعية ، وكان من أعضائها أحمد محرم وحسن كامل الصيرفي والدكتور على العناني وابراهيم ناجي ومحمود أبو الوفا واحمد ضيف وعلي محمود طه ومحمود صادق وغيرهم ، ثم انضم اليها الكثير من الشعراء والادباء والنقاد وفي مقدمتهم مصطفى عبد الحميد السحرتي ومختـــار الوكيل وصالح جودت ، ومن البلاد العربية والمهجر ، الشابي والجواهري وأبوماضي والياس أبو شبكة . ولو أننا درسنا انتاج شعراء هذه الجمعية لوجدنا فيه بعض المشابه من شعر مطران لان الشعراء جميعـا كانوا يعتبرونه استاذا لهم ، وليس أدل على ذلك من أنهم لم يرضوا بغيره رئيسا ولم يعقدوا لسواه امارة الشعر بعد وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي .

وترجع مدرسة أبولو الى الادبين العربي والغربي معا ، تأخذ منهما أخيلتها ومعانيها وصورها المتعددة مع التنـاول الفني السـليم للفكرة والموضوع والمعاني ، والدعوة الى الحرية الفكرية والادبية والفنية ، والى تمثيل الشعر لخلجات النفوس وتأملات الفكر وهزات العواطف والمشاعر والى الطلاقة والحرية وظهور الشخصية الفنية ووضوح الطاقة الشعرية الخلاقة ونبذ المـذهب الفردي في الادب ، والايمـان برسـالة الشـعر للشعر ، وتجاوب الشاعر مع الطبيعة أو تناول الموضوعات الانسانية والعالمية والاعتماد على القوة الشعرية في ذاتها حتى يؤدي الشعر رسالته من اعزاز الخير ، وتقديس الجمال ، وتحرر الشخصية الفنية والاعتقـاد بتطور لغة الشاعر وأخيلته وتعابيره ، بالاضافة الى تطور نفسيته وافكاره ومثله العليا .

وجمعية أبولو جمعية أدبية ناهضة تشبه الى حد بعيد تلك الجمعيات التي تكونت في أوربا وترمي الى نهضة الشعر والادب مثل جمعية الشعر الانجليزية Poetry Society في انجلترا ، والرابطة العلمية في نيويورك، وقد أوصى الشاعر روبرت بروك Rubert Brook أن يخصص دخـل تاليفه لنشر بعض مؤلفات أقرانه المجددين مثل لاسل ابركرومبي وولفرد جبسون وولتر دي لامار .

مدرسة مطران بين المدارس الشعرية الحديثة

هذه هي مدرسة مطران الشعرية وهي كما رأيت تضم شعراء من مصر وسوريا ولبنان والمهجر ، فهي مدرسة كبيرة تؤثر المذهب الرومانتيكي في الشعر والانسياق وراء العاطفة أولا ومتابعة الخيال ثانيا ، وهي تلجأ الى القصص الطريفة الحافلة بالحوادث والغرائب بعيدة المرمى عظيمة المغزى ، والى التنوع في الاوزان والقوافي والى تطعيم الشعر العربي بالثقافة الغربية ، واستمداد بعض الاغراض والمعاني من أعلام الشعر الاوربي ، والى الفناء في الطبيعة وتصوير المشاعر الانسانية في صدق وصراحة وجلاء . وهي تختلف عن مدرسة العقاد التي ترمي الى الواقعية في الشعر وانزال الشعر من عليائه ليجاري الحياة اليومية ويتحدث عن مطالب العيش وتصوير الناس تصويرا واقعيا صادقا دون تزويق ودون تنميق وعدم التحرج من نظم الشعر في أبسط الامور كما تدعو مدرسة العقاد الى جعل القصيدة كلها وحدة واحدة في النقد ، بدلا من النظر الى جمال البيت الواحد . قال عباس العقاد في الفنادق :

حسب الفنادق أن تذكرنا	مر الفناء بكل ما يحيا
تبدو الوجوه لعين عابرها	وتغيب عنه كأنها رؤيا
في كل توديع وتفرقة	شيء من التوديع للدنيا

ففي هذه الأبيات نزل الشاعر من عليائه ، ونظم في الفنادق واستخرج فلسفة عميقة من الشيء البسيط . واستخرج من هذه الاوقات التي يقضيها المسافر في الفندق عبرة وذكرى ، كما قال العقاد في كواء الثياب :

لا تنم لا تنم	انهم ساهرون
سهروا في الظلم	أو غنوا يحلمون
أنت فيهم حكم	وهم ينظرون
في غد يلبسون	في غد يمرحون

فالكواء لايثير في نفس شعراء العرب شعورا الا أنه يثير في نفس العقاد ومدرسته أحاسيس شتى ومشاعر عدة لانهم واقعيون لا يتعلقون بالاحلام ولا يتمسكون بالاوهام ولا يجرون وراء الخيال . انما يغوصون الى أعماق الحياة ، ولا يستنكفون الاشياء الصغيرة ويسخرون من الاشخاص المكدودين ، ويجدون في هذه (الواقعية) غذاء لروحهم الفنية وهدفا لاغراضهم الشعرية .

وكانت مدرسة العقاد الى جانب هذا تطعم شعرها ببعض المعاني

والأغراض المأخوذة من الادب الانجليزى ، على العكس من مدرسة مطران التى كانت متعمقة فى الادب الفرنسى .

وخلاصة مذهب مدرسة العقاد في الحب والجمال (كما جاء في ديوان العقاد الاول) ان الجمال كما يقول بعض الفرنجة عبقرية فى ذاته وانه ينبغى للجميل الا يضن بالوصل :

فياخازن الافراح ما لقلوبنا خواء وافراح الحياة كثير
ومالك ضنانا بما لو بذلته لما ضاع منه بالعطاء نقير

أو كما قال فى مقطوعة أخرى :

لمن الجمال تعده أتعده للناهبينا ؟
أم للذين تسللوا ختلا فطوبى للذينا

ومطران يختلف فى نظره الى الجمال عن العقاد ومدرسته ، مطران يدعو الى الحب العفيف ، ويدعو الى عدم هبة الجمال لكل حى ، بل قصره على المحب ، وفى هذا يقول :

حبا لحسنك يا سلمى وان هو لم يستبق منى الا الرسم والحرقا

كما يدعو مطران الى التغنى بجمال الروح فيقول :

أبت أن أراها وقد زال عنها جمال ملامحها الزاهر
وقالت عصيتك فيما أشرت وبالروح أمرك والآمر
أضن بحسنى وهو شفيعى لديك وعلك لى عاذر
فيا هند ان زال عنك الجمال فحسب الفتى قلبك الطاهر
وان بان حسنك عن ناظرى فان الفؤاد له ناظر

ولا غرو بعد ذلك أن يظل مطران محبا وفيا الى الأبد لمحبوبته ويترنم لها بهذه الابيات :

أحبك حتى لاسرور ولا منى ولا شمس الا أن أراك ونجما
أحبك حتى ينكر الحب رسله جميلا وقيسا والألى استشهدوا قدما
ولو لم تكن فى الموت سلوى أخافها لأحببت حتى الموت فيك ولو ذما

وتختلف مدرسة مطران كذلك عن مدرسة شوقي وحافظ التى تستهدف تجويد الشعر باصطفاء اللفظ واحكام الصياغة والاحتفال بالمعانى وعدم استهلاكها فى سبيل البديع واستظهار اشعار القدماء مثل أبو تمام والبحترى وأبو نواس والمتنبى وانتهاج طرائقهم ومباراتهم فى

منازعهم فاتصلت بأدواتهم وجرت في عروقهم وخالطت طباعهم فنضحت على أقلامهم ·

ولم يعمد مطران الى معارضة الشعراء القدماء على النحو الذى فعله شوقي حين قال في رحلته الى الاندلس :

اختلاف النهار والليـــل ينسى	اذكرا لى الصبا وايام أنسى
وصفـا لى ملاوة من شـباب	صورت من تصورات وحسى
عصفت كالصبا اللعوب ومرت	سـنة حـلوة ولـذة خلس
وسلا مصر : هل سلا القلب عنها	أو أسـا جرحه الزمان المؤسى ؟

يعارض قصيدة البحترى في ديوان كسرى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى ‏ وترفعت عن جدا كل جبس

وكما نظم «نهج البردة» يعارض بها بردة البوصيرى ، بل اتجه الى التاليف والترجمة للمسرح · وكان شوقى يحرص كل الحرص على صفاء اسلوبه وجمال صوغه وحلاوة معانيه وقد برزت هـذه الظاهرة بشكل ملحوظ فى شـعر حافظ · فحـافظ دءوب ء لى جودة الاسلوب ومتانة التراكيب وحبكة العبارة ، فهو ممن يدينون أولا بالديباجة ويصرفون جل همهم لها · اما المعانى فعنده فى المرتبة الثانية وانه ليرتفع فى طلبها على الا تقلق لفظه أو تخل بنظمه ، ومثال ذلك قوله على لسان اللغة العربيـة تنعى حظها بين أهلها :

انا البحر فى أحشائه الدر كامن	فهل سألوا الغواص عن صدفاتى؟
فياويحكم ابلى وتبـلى محاسنى	ومنكم وان عز الدواء أسـاتى
فلا تكلونى للزمـان فاننى	أخـاف عليـكم أن تحـين وفاتى
ارى لرجال الغرب عزا ومنعة	وكم عز أقوام بعز لغـات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننـا	فياليتكم تأتون بالكلمـات

فهذه الأبيـات تضج بالألفاظ وتتزين بالأسلوب أكثر مما تتميز بالعاطفة والخيال وتلك هى ميزة حافظ فى أغلب شعره ·

وصفوة القول ان مطران من مدرسة تختلف كل الاختلاف عن مدرسة العقاد أو شوقي وهى مدرسة جديدة فى الادب العربى لها أصولها الثابتة فى الارض ولها فروعها الممتدة فى السماء المنتشرة فى كل مكان ·

البارودي دائرة في مدرسة مطران

لم تنبثق مدرسة الخليل دفعة واحدة كما تنبثق العين الثرة مرة واحدة فى الصحراء ، انما كان لها أصول أولى في شعر الشعراء القدماء والمحدثين ولعل أكبر أستاذ لهذه المدرسةالقديمة هو الشاعر محمود سامى البارودى الذى يعتبر أول ناهض بالشعر العربى فى العصر الحديث اذ أصيب الادب فى عصره وقبل عصره بركود شديد ، وسكن فى شبه خمول. فقام البارودى بدعوته الى العودة بالشعر الى فتوته وقوته ونضارته فى الأعصر المتقدمة · فمن أصول مدرسة مطران القصص الشعرى · ولا نعنى أن مطرانا كان مبتدعا لهذا الفن أو خالقا له من العدم فهو فن أصيل موجود فى الأدب العربى منذ عهد بعيد ، بل لقد وجد فى شعراء العرب قبل هذه الفترة من نظم بعض القصائد القصصية بالشعر ، انما نعنى أن مدرسة مطران أولت هذا اللون من ألوان الشعر عناية فائقة ملحوظة حتى غدا ركنا من أركانها .

ولكن هذه الظاهرة ليست هى كل خصائص مدرسة مطران · انما كانت مدرسته تتميز بشدة الحساسية والنزعة الوجدانية الخالصة والاندماج فى الطبيعة واضفاء مشاعر المرء على المرئيات والسمعيات ، وتلك النزعة كانت بارزة فى شعر البارودى ولا سيما فى شعره الذى نظمه عندما اكتوى بنار النفى الى جزيرة « سرنديب » فطفق يصف حنينه الى وطنه وما كان يعتوره من شعور بألم الغربة والبعد عن الديار وخيم عليه حزن دفين شاع فى كل بيت من أبيات شعره :

محا البين ما أبقت عيون المها منى	فشبت ولم أقض اللبانة من سنى
عناء ويأس واشتياق وغربة	ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن
فان أك فارقت الديار فلى بها	فؤاد أضلته عيون المها منى
بعثت به يوم النوى أثر لحظة	فأوقعه المقدار فى شرك الحسن

وكقوله كذلك متحسرا :

ولما وقفنا للوداع وأسيلت	مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصبرى أن يعود فعزنى	وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

وعندما انتقلت زوجة البارودى الى رحمة الله وهو فى منفاه طارت نفسه شعاعا من أجلها ورانت عليه كآبة موجعة وذرف من مآقيه عبرات حائرة كما صعد من قلبه آهات حارة حزينة ·

لا لوعتي تدع الفــؤاد ولا يدى تقوى على رد الحبيب الغادى
يا دهــر فيــم فجعتني بحليلة كانت خلاصــة عدتى وعتــادى
هيهات بعدك أن تقر جوانحى أسـفا لبعـدك أو يلين مهــادى
ولهى عليك مصـاحب لمسيرتى والدمع فيك ملازم لوســادى
فاذا انتبهت فأنت أول ذكرتى واذا أويت فأنت آخـــر زادى

***

وهكذا كان البارودى يمتاز بالنزعة الوجدانية الخالصة وكان يعبر عن خلجات فؤاده ونبضات شـعوره فى شعره فى صدق تام وصراحة واضحة دون تزويق ودون تنميق ودون كذب أو رياء ، وأطلق العنان لاحساسه الفردى وخواطره الانسانية ، وكان الشعراء فيما مضى يهتمون بالعالم الخارجى أكثر من اهتمامهم بالعالم الداخلى أو قل يهتمون بالاشياء المحيطة بهم أكثر مما يهتمون بدخائل نفوسهم وطوايا قلوبهم ، وهذه النزعة الوجدانية الخاصة التى امتاز بها شعر البارودى هى التى شاعت فى مدرسة مطران وقد زخر شعر البارودى بالألم ، فجاءت مدرســة مطران فتمادت فى هذا الألم • ويبدو أن مطران كان أكثر اتصــالا بالثقافة الغربية من البارودى ، فهذب هذا الألم تهذيبا جديدا • وصار أشبه بالرومانتيكيين الذين يتفشى الألم فى شعورهم وينطبع فى شعرهم ، وهو ألم يدل على عزلتهم الروحية وانهيار آمالهم الواسعة ونفورهم من أدواء المجتمع • كما يدل على رقة الشعور وشبوب الاحساس الى درجة لا تستقر نفوسهم فيها على قرار بل تظل نهــب اضطراب دائم وحيرة متصلة ، والعمر قد يمتد بهم ولكنهم لايجنون من آمالهم شيئا ولا يظفرون من أحلامهم بشىء •••

فقال البارودى :

أعد يا دهر أيام الشــباب وأين من الصــبا درك الطلاب
زمانا كلمـا لاحـت بفـكرى خمائله بكيت لفرط ما بى
مضى عني وغادرنى ولوعـا تولد منه حزنى واكتئابى
وكيف تلذ بعد الشيب نفسى وفى اللذات ان سـنحت عذابى ؟

وقال البارودى فى موضع آخر يتشوق الى مصر بوجدان عذبه البعد ولوعه الفراق •

ليت شعرى متى أرى روضــة النيل ذات النخيل والأعناب
حيث تجرى السـفين مستبقات فوق نهـر مثل اللجين المذاب
ملعب تسرح النواظر فيـه بين أفنان جنة وشــعاب

يا نديمي في سرنديب كفا عن ملامي وخلياني لما بي
كيف لا أندب الشباب وقد أصبحت كهلا في محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتي وكساني حلة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبي فوق عيني كحبال كأنني في ضباب ؟

وقال كذلك يتشوق الى وطنه في حسرة تفتت الأكباد وتحرق القلوب :

هل من طبيب لداء أحب أوراق يشفي عليلا أخا حزن وايراق
قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقا حتى جرى البين فاستولى على الباقي
حزن براني وأشواق رعت كبدي يا ويح نفسي من حزن وأشواق
أكلف النفس صبرا وهي جازعة والصبر في الحب أعيا كل مشتاق
لا في « سرنديب » لي خل ألوذ به ولا أنيس سوى همي واطراقي

وقال يصف حاله ويرجو العطف عليه :

فنومي كله سهد وعيشي كله أسف
وما أخفيه من وجدي وحزني فوق ما أصف
فهل من صاحب يرثي لما ألقى فينعطف ؟

وقال مطران في نغمة أسيفة وأسلوب حزين :

أنا الألم الساجي لبعد مزارفي أنا الأمل الداجي ولم يخب نبراسي
أنا الأسد الباكي أناجيل الأسر أنا الرمث يمشي داميا فوق ارماس

كما أخذ يوقع على وتره الاخير لحن الرضا وسكينة النفس :

ماذا يريد الشعر مني أخنى عليه علو سني
زمني تولى والألى عمروه من صحبي فدعني
ولى الربيع وجف عودي وانقضى عهد التغني
وعدمت لذات الرؤى وعدمت لذات التمني
اني ختمت العيش في وادي المخيلة أو كأني

ومن خصائص مدرسة مطران الشعرية كذلك وحدة القصيدة . فهو ينظر الى القصيدة ككتلة واحدة موحدة الغرض وهذه الظاهرة كانت من الظواهر البادية في شعر البارودي غير أنه لم يعرف وحدة الغرض في القصيدة الواحدة كما نفهمها اليوم وكما يفهمها أهل الغرب ، وكان ينتقل من الغزل الى المدح الى الفخر الى الحماسة الى الحكمة كما كان يفعل البحتري أو أبو تمام والمتنبي وغيرهم من كبار الشعراء ؛ ذلك لأن

رسالته لم تكن تجديد الشـــعر العربي في حياته المتدفقة الفياضة بل كانت في بعث الشعر العربي من مرقده ، وتمزيق الاكفان التي احتوته مئات السنين (١) .

وقد اتخذ مطران من وحدة القصـــيدة أساســا لدعوته في بادىء الأمر ، فكان لا ينظر الى جمال البيت المفرد بل ينظر الى جمال البيت في ذاته وفي موضعه والى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها . وقد جارى مطران في هذا الاتجاه كثير من الشعراء في العصر الحديث مثل ابراهيم ناجي وأحمد أبو شادى وخليل شيبوب وغيرهم ؛ وقد زخر ديوان البارودى بالمشاعر الصادقة ، وضـم اغراضا لم تكن مطروقة في عهــــد الأولين ممن بعث لغتهم وشعرهم ، وقصائد تعبر عن ذاتيـة قوية واضحة . ويأخذ بألبابنــا ما في ديوانه من الشعر السياسي ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية والحياة المصرية ، فنهج مطران نهجه فألقى في الشـعر السياسي بدلوه ووصف ريف مصر وطبيعة مصر وتغنى بآثار مصر ومجدهــــا الفرعوني التليد ، ووصف الحياة المصريةونواحيها الاجتماعية المختلفة، وحذا حذوهتلاميذهمن الشعراء ممن تشربوا بأدبه . وقد يخفف بعض النقاد من أثر البارودى في تطوير الشعر العربي ، غير أننا نستطيع أن ندرك ميزاته اذا ما قسناه بشعراء عصره أمثال محمود صفوت الساعاتي المتوفى عام (١٨٨٠) . الذى كان أكثر شعره في مدح أشراف مكة والحجاز ، وقد رد الدكتور محمد حسين هيكل على النقاد المقللين من أثره في الشعر العربي بقوله (فاذا كان البارودى قد بعث الشعر العربي واللغة العربية من مرقدهما ورد اليهما حياة ذوت وذبلت قرونا متعاقبة ، فعمله هذا خلق لا ريب ، وهو جدير لهذا أن يتسنم ذروة المجد وأن يجلى بين الخالدين (٢) ...)

فلا شك اذن أن يكونمطران رجع الى البارودىفي دعوته للتجديد ، غير أنه زاد فيها وأضاف اليها ، وكان حرصه على وحدة القصيدة أكثر من حرص البارودى عليهــا . وفاض ديوانه بالنزعة الوجدانية الخــاصة التي فاض بها ديوان البارودى ، وجعلته يذرف الدمع السخين من العين وهو منفي بميـنـــاء « كولومبو بجزيرة سرنديب » حزنا على فراق أهله وأحبابه . وينظم العذب من الشعر من ذوب هذه الدموع حتى ضـعف

---

(١) مقال للدكتور محمد حسين هيكل ـ المقتطف يناير ١٩٤١ ص ٢١ .
(٢) مقدمة ديوان البارودى طبعة وزارة المعارف المصرية ١٩٤٠ م

بصره فلم يعد الى مصر من المنفى الا بعد أن كان فى نهايته وبعد أن ذهب الأسى بما بقى من بصره .

لاشك أن مطران قرأ للبارودى قبل القيام بدعوته الى التجديد فلما خرج بها على الناس رحب بها كثير من الشعراء ووجدوا فيها الدعوة التحريرية الكبرى للشعر العربى التى تنفض عنه غبار السنين ، ومن خصائص مدرسة مطران الشعرية حب الطبيعة والاندماج فيها وتلك الخاصية من دعائم المذهب الرومانتيكى فى أوروبا . فالرومانتيكى لاستسلامه لمشاعره وعاطفته ، يحس بجمال الطبيعة ويهيم بها وبخصائص كل منظر فيها ويحب العزلة بين أحضانها ، لا يرجع فى ذلك الى تقليد الآداب القديمة بل الى ذات نفسه .

وقد كان مطران يندمج مع الطبيعة اندماجا كليا وظهرت هذه السمة بارزة فى قصيدة (المساء) على النحو الذى ذكرناه آنفا وتبعه فى هذا الاتجاه الشاعر ابراهيم ناجى وأحمد زكى أبو شادى وخليل شيبوب وبشارة الخورى وغيرهم :

ومن يبحث فى ديوان البارودى يجد بعض معالم هذا الاتجاه فى شعره . فهو وصاف مبدع ، والجديد فى وصفه أنه أفرد له قصائد بعينها ، ولم يأت عرضا فى ثنايا القصائد ، كان يصف لمجرد الوصف ، ولمجرد استجابته لمشاهد الطبيعة ولأن شاعريته المتدفقة وحواسه المرهفة واحساسه الحى بالجمال يدفعه الى قول الشعر والى وصف مشاهداته ، لا كما هى فى الطبيعة ولكن يخرجها فى اطار من روحه ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

وقد عاش البارودى فى بعض قصائده مع الطبيعة واندمج فيها وقال يصف طائرا تحرك فأيقظه من سنته :

ونبأة أطلقت عينى من سنة   كانت حبالة طيف زارنى سحرا
فقمت أسأل عينى رجع ما سمعت   اذنى فقالت : لعلى أبلغ الخبرا
ثم اشرأبت فألفت طائرا حقدا   على قضيب يدير السمع والبصرا
مستوفزا يتنزى فوق أيكته   تنزى القلب طال العهد فادكرا
لا تستقر له ساق على قدم   فكلما هدأت أنفاسه نفرا
ما باله وهو فى أمن وعافية   لا يبعث الطرف الا خائفا حذرا
اذا علا بات فى خضراء ناعمة   وان هوى ورد الغدران أو نقرا

ففى هذه الأبيات يعيش البارودى مع هذا الطائر الصغير ويتتبع

حركاته ويحاول أن يستشف دخيلة قلبه الصغير ، ويستبين أطواء نفسه ليعرف سر فزعه وترقبه واضطرابه ، مع أن ظاهر الأمر يدل على أنه فى نعمة وعافية وهناء ورخاء ٠

ومن أروع أوصافه للطبيعة التى يشعر المرء عند قراءتها أنه يعيش بين أحضان الطبيعة ويستمتع بجمالها ويغذى عينيه من بهائها قوله :

وللنسيم خلال النبت غلغلة	كما تغلغل وسط اللمة المشط
والريح تمحو سطورا ثم تثبتها	فى النهر لا صحة فيها ولا غلط
وللماء خيوط غير واهية	تكاد تجمع بالأيدى فترتبط
كأنها وأكف الريح تضربها	سلوك عقد تواهت فهى تنخرط

ومن أجمل شعره فى هذا الباب قوله وهو فى سرنديب يصف تفرده هناك وحزنه بين أحضان الطبيعة :

لا فى « سرنديب » لى الف أجاذبه	فضل الحديث ولا خل فيرعى لى
أبيت منفردا فى رأس شاهقة	مثل القطامى فوق المربأ العالى
اذا تلفت لم أبصر سوى صور	فى الذهن يرسمها نقاش آمالى
تهفو بى الريح أحيانا ويلفحنى	برد الطلال ببردى وأسمالى
ففى السماء غيوم ذات أورقة	وفى الفضاء سيول ذات أوشال
فلو ترانى وبردى بالندى لصق	لخلتنى فرخ طير بين أدغال

كما قال يصف سجنه ويصور مشاعره فى آناء الليل وأطراف النهار أثناء هذه الفترة :

فسواد الليل ما أن ينقضى	وبياض الصبح ما أن ينتظر
لا أنيس يسمع الشكوى ولا	خبر يأتى ولا طيف يمر
بين حيطان وباب موصد	كلما حركه السجان صر
يتمشى دونه حتى اذا	لحقته نبأة منى استقر
كلما درت لأقضى حاجه	قالت الظلمة مهلا لا تدر
أتقرى الشىء أبغيه فلا	أجد الشىء ولا نفسى تقر
ظلمة ما ان بها من كوكب	غير أنفاس ترامى بالشرر

ومن الفنون التى برع فيها مطران ونهج نهجه شعراء مدرسته ، الأدب الريفى وقد كان البارودى واضعا لأساس هذا الفن فى الشعر العربى الحديث ٠ وقد قضى البارودى فترة طيبة من حياته فى الريف ، فالهمه بالعذب من الشعر ، وحينما ثار الجيش وخلع وزير الحربية عثمان رفقى

ولى توفيق البارودى وزارة الحربية مع الأوقاف ولكن رياض باشا رأى نزعاته الشعبية فدس عليه عند توفيق فعزله • فانصرف البارودى عن السياسة وعاش فترة من الوقت فى الريف وفى هذا يقول :

صبح مطير ونسمة عطره — وأنفس للصبوح منتظره
فدر بعينك حيث شئت تجد — ملكا كبيرا وجنة خضره
وخلنا من سياسة درجت — بين أناس قلوبهم وعرة
يقضون أيامهم على خطر — فبئس عقبى السياسة الخطرة
خديعة لايزال صاحبها — بين هموم وعيشة كدرة

وقال فى وصف القطن :

والقطن بين ملوز ومنور — كالغادة ازدانت بأنواع الحلى
فكأن عاقده كرات زمرد — وكأن زاهره كواكب فى الروا
دبت به روح الحياة فلو وهت — عنه القيود من الجداول قد مثى
فأصوله الدكناء تسبح فى الثرى — وفروعه الخضراء تلعب فى الهوا

كما نظم البارودى ابان الربيع أرجوزة استهلها بقوله :

عم الحيا واستنت الجداول — وفاضت القدران والمناهل

وقال فى وصف روضة كثيرة الأشجار غزيرة المياه :

دعانى الى غى الصبا بعدما مضى — مكان كفردوس الجنان أنيق
فسيح مجال العين أما غديره — فطام وأما غصنه فرشيق
كسا أرضه ثوبا من الظل باسق — من الأيك فينان السراة وريق
سمت صعدا أفنانه فكأنما — لها عند احدى النيرات عشيق
يمر شعاع الشمس فى حجراتها — سلاسل من نور لهن بريق
ويشدو بها القمرى حتي كأنه — أخو صبوة أو دب فيه رحيق

وهذه النزعة الى الأدب الريفى قد ولع بها مطران ولوعا شديدا على النحو الذى بينا وتأثر بها الشاعر أحمد زكى أبو شادى ، وقد نشر أحد الباحثين منذ سنوات كتابا فى هذا المعنى واطلق عليه (الريف فى شعر أبى شادى) كما تأثر بها خليل شيبوب ، ولا تزال حتى اليوم بارزة فى شعر الشاعر محمود حسن اسماعيل وشاعر البرارى وغيرهما •

وأغرم مطران بوصف الآثار القديمة واستعراض مجد مصر الغابر وهذه النزعة ظهرت فى بادىء الأمر عند البارودى وحذا حذوه شوقى وحافظ ومطران • ومن قصائد البارودى فى هذا الباب تلك القصيدة التى

يصف بها (الهرمين) · وهي تمجد الفراعنة الاوائل وتظهر عظمتهم في فن البناء ، وتختلف عن قصيدة مطران في المعنى اذ أنه اعتبرها آية على سخرة الشعوب في سبيل مجد الملوك ·

وقال البارودي في قصيدته :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر	لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
بنـــاءان ردا صولة الدهر عنهمـــا	ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطـــوب ليشـــهدا	لبانيهمـــــا بين البرية بالفخـر
فكم أمم في الدهر بادت وأعصر	خلت وهما اعجوبة العين والفـكر

وجملة القول ان البارودي كان الباعث الأول لمدرسة مطران غير أن شعر مطران لم يكن صورة طبق الأصل من شعر البارودي في أفـــكاره وخيالاته · انما صبغ مطران دعوته بروحه وشخصيته وفاض عليها بثقافته ومن هنا كان صاحب مدرسة جديدة في الشعر العربي ، وقد أعد مطـران ليكون أديبا ، فقرأ عشرات الكتب في الأدب العربي والغربي قبل أن ينظم بيتا واحدا من الشعر · زد على ذلك انه كان صاحب حافظة قوية للشـعر قلما تخطيء الرواية · أما البارودي فأعد ليكون جنديا لا ليكون أديبا · ويقول الشيخ حسين المرصفي « انه لم يقرأ كتابا واحدا من فنون العربية غير أنه كان شديد الحفظ لشعر القدماء » ·

ومن أجل هذا الفرق في الثقافة بين الشاعرين كانت دعوة مطران الى التجديد أرحب من دعوة البارودي وأبعد أثرا في تاريخ الشعر العربي الحديث ·

الباب الثاني

الفصل الأول : نثر خليل مطران

ينبع النثر من النفس ولكن من معين آخر يختلف عن معين الشعر ۰ الشعر قوامه العاطفة والخيال والموسيقى ، أما النثر الفنى فينبع من العقل ويزاد على الغرض منه التأنق فيـــه لاخراجه فى صورة جميلة تحدث فى النفس اعجابا لها وتعلقا بها ۰ والشاعر ليس من الضرورى أن يكون ناثرا، كما أن الناثر ليس من الضرورى أن يكون شاعرا ، وهناك كتاب يحسنون الكتابة الأدبية وينبغون فيها كطه حسين وأحمد حسن الزيات والمنفلوطى، ولكنهم لا يبلغون الغاية فى الشعر ۰ حقا وجد لهم بعض الآثار الشعرية كطه حسين فى الجريدة ومصر الفتاة فى مستهل هذا القرن ۰۰ والمنفلوطى والزيات فى المؤيد والرسالة وغيرهما ، ولكن هذه الآثار الشعرية لايمـكن أن تلحقهم بزمرة الشعراء ، فهى محاولات لا أكثر ولا أقل ، وهى نفثات جاشت بها النفس كما يفيض الاناء بالماء ، ولم تلبث ظروف الحيـــاة أن صرفتهم عن الشعر صرفا واقصتهم عن دنيا الخيال اقصاء ، فانصرفوا الى معالجة الكتابة الادبية بفنونها المختلفة ، سواء فى ذلك المقالة والنقد والقصة وغير ذلك من فنون الأدب ۰

وهناك شعراء يعالجون فن الكتابة بالنثر كذلك ، ولـــكن لاتلبث طبائعهم أن تغلب عليهم ، ولا تلبث ميولهم أن تسيطر على أفــكارهم فيجنحون الى لغة العاطفة أكثر مما ينزعون الى لغة العقل ويؤثرون الشعر على النثر ۰ وربمـا يكتبون بعض نفثاتهم بالنثر ، ولـكن طبيعة الشـعر وطابعه يطغيان على هذه النفقات ، فتخرج أقرب الى الشعر المنثور منها الى اى شيء آخر ، كما فعل شوقى فى حكمه ووصاياه وفى (أسواق الذهب) التى جارى بها الزمخشرى فى (أطواق الذهب) وكتب حافظ ليــــالى سطيح فملأها بكثير من العبارات الغامضة والألفاظ الغريبة التى تحتاج الى تفسير فلم يوفق فى أسلوبه النثرى وجنح الى الصناعة والتكلف ۰

وعندى أن نثر مطران يمتاز بطابعين لا بطابع واحد . الطابع الأول طابع السهولة والسلاسة ، وقد ظهر هذا الطابع فى كتابته الاولى فى المجلة المصرية والجوائب المصرية وجريدة الأهرام ، وقد أدى الى هـــذه السهولة والسلاسة اتصال مطران بالصحافة واشتراكه في تحرير بعض الصحف ، والصحافة تتطلب لونا معينا من الكتابة وهو اللون الســـهل السلس الرقيق الرشيق وتنفر من لون آخر من الكتابة وهو اللون الصعب الغريب الشموس النافر .

وقد سبق أن أشرت عند الحديث على جهود مطران الصحفية الى فقرات من أسلوبه تبين مدى نزوعه الى العقل فى احكامه ، واعتماده على التحليل والتعليل أكثر من اعتماده على الأسلوب الخطابى المثير أو العاطفى الحزين الذى يلجأ اليه بعض الكتاب فى مصر ، مثل الـــكاتب المعروف مصطفى صـــادق الرافعى الــذى كان يعتمــد على اثارة العــاطفة والألم فى أغلب كتاباته .

والطابع الثانى الذى يمتاز به نثر مطران هو أسلوب الشعر المنثور وهذا الأسلوب ظهر عند كثير من الشعراء والكتاب ، نذكر منهم أحمــد شوقى الشاعر وحسين عفيف ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم ، وقد لجأ مطران فى هذا اللون الى استخدام الأسلوب العــــاطفى الرقيق والنغم الموسيقى الرتيب ، والموافقة بين مخارج الحروف فى الـــكلمات ، تأمل ما كتبه « تجاه البحر » (١) ونشره فى مجلة الزهور التى كان يصدرها صديقه الصحفى المعروف انطون الجميل وتقى الدين وشركاؤهما .

« ذهبت الى الاسكندرية أصطاف .. استغفر الله .. (كبرت كلمة الاصطياف بواسع معناها على ما يمكننى من سواغ الفراغ) .. بل ذهبت لقضاء أيام ألتمس فيها راحة من عناء الاعمال ، فلما بلغت المنزل كان أول مطلب لى أن أرى البحر فمشيت اليه وحاذيت افريزه الجــديد متخطرا على رسلى ، حتى انتهيت الى حــد الرصيف غربا ، فعمــدت الى صــخرة وثويت عليها .. ثويت متفرجا متخليــا متروحا .. غير أننى لم ألبث أن وجدتنى قد أخذت بمحاسن ما أرى ، واغتربت عن نفسى ساعة ، فلمــا عدت من غربتى حسبتنى هيكلا يتلهب بين تلك البسطة المائية التى تحيط بى .. ولم يكن الا أن رسوت بجسمى مطلا على ذلك الفضاء المتحشرج اللين المتغرب المتلون ، حتى مضى نظرى طافيا فوق اللجج طاويا أبعادها .ملمــاً

(١) مجلة الزهور أكتوبر عام ١٩١٣ - ص ٣٩١ .

بآفاقها ، وتدافعت خواطري متخذة من اشعة النظر أسبابا ترتقي عليها أو سفائن تستقلها • فارقت جسمي كمـا تفارق النحل الخلية وانصرفت أشتاتا بين السماء والماء •

ان للخواطر جنبا عذبا تجنيه من آيات الماء الملح ••• جنى معـه التعب ، وتعبه هو الراحة على حد قول القائل (وهو نفس صاحب المقالة) انما الراحة لبديل لنوع التعب •

والتداوي نصب   يشفى من نصب

ما صفة ذلك الجنى ؟ •

لا تكلفوها شاعرا قديرا ولا كاتبا نحريرا ولا حكيما خبـيرا ، بل ليسأل كل منكم نفسه عما أحس وتصور ، حين جلس الى البحر مثل هذه الجلسة •

جنيت من تلك الرحلة الفكرية تعبا مريحا ، واردت تدوين ما كسبه ذهني من محصولها ، فعجزت عن أقله ، ولم يسعني سـوى أن أتنفس الصعداء بهذا النداء •

أيها البحر الشائق ••

ماذا يبلغ علم انسان جاهل ضعيف من أسرار جلالك وجمالك ؟ اذا طغت الموجة من أمواجك فاستجمعت خضراء وانحذفت رابية شماء ، تأخذ العنان بعفرتها البيضاء •••

فأي فكر يكبرها اكبارها وان هي منك الا ألعوبة تتجدد كل ثانية واعجوبة ، بينما هي الأولى اذا هي الثانية •

فاذا ملك النفس وملأ الحس اعظام تلك الآيات فما الذى تفعـله الروعة بالمتطلع حين تهبط الرابية وتنفغرلها الهاوية فتقصف وهي متداعية حتي تنش نشيشا وقد تكسرت الى ألوف أجزاء من الماء المتشعب واللؤلؤ والمختلف النضار الساكب أو المنبسط والجمان المصوغ أو المتناثر • فاذا التمس العقل مزيدا وتعمق الى مضطرب الذريرات فما حيرته ودهشـته لدى كل قطرة وفي القطرة جزيئات لاتعد • هذه تبسم وردية وتلك ترقص لازوردية • احداهما تجمل محمرة وأختها تزحف مخضرة ، بعضها ينظر باللجين شزرا وبعضها يضمر النار ويصفو مغترا •

أيها البحر الشائق الجميل .

تجاهك لا يحسن الا التعجب والسكوت ، وان مع السرور برؤيتك لأسفا دويا من أنك أنت أيضا هي وأنت أيضا ستموت ..)

هذا نموذج من كتابة مطران النثرية وهي كما سبق أن أشرت آنفا من اللون الثاني الذى يلجأ اليه مطران وهو الكتابة القريبة من الشعر، وان شئت فقل انها من الشعر المنثور ، ومن يمعن النظر فى هذه القطعة أو هذا المقال يلاحظ أن مطران شاعر فى أفكاره ، شاعر فى أسلوبه ، وقد يعتمد على بعض أبيات من نظمه من الشعر ليزين مقاله أو قد يعتمد على الوان البديع ابتغاء هذا الغرض كذلك . فيلجأ الى الجناس التام الذى يتفق فيه الألفاظ فى أنواع الحروف واعدادها والهيئـــة الحاصـــلة من الحركات والسكنات وترتيب الحروف كما فى قوله (العوبة تتجددكل ثانية واعجوبة بينا هي الأولى اذ هي الثانية) أو يلجأ الى الجناس غير التام كما فى (ألعوبة) و (أعجوبة) .

وقد يلجأ مطران الى السجع كما فى قوله (فما الذى تفعله الروعة بالمتطلع حين تهبط الرابية وتنفغر لها الهاوية ، فتقصف وهى متداعية) أو قوله (فاستجمعت خضراء وانخذفت رابية شماء تأخذ العنان بعفرتها البيضاء) وقد يعتمد مطران فى كتابته الى مراعاة النظير .. كما فى قوله (الماس واللؤلؤ والنضار والجمان) فهذه الألفاظ تطلق جميعا على أنـــواع مختلفة من الجواهر أو فى قوله (محمرة مخضرة ...) وقد يلجأ الى الطباق بين الراحة والتعب والجناس بين (جلالك وجمالك ...) (الماء والسماء) ويوافق فى النغم الموسيقى ومخارج الحروف فى الألفاظ والعبارات ، كقوله (النفس والحس والمختلف النضار الساكب أو المنبسط والجمان المصوغ أو المتناثر) فالسين والصاد والتاء حروف متقاربة فى نغمها الموسيقى وجرسها اللفظى .

وقد يعتمد مطران على التكرار كتكراره عبارة (أيها البحر الشائق)

وربما دفعه التقعر اللفظى الى استخدام الفاظ غير مطروقة مثـــل (تنش نشيشا) وهذا الفعل قليل الاستعمال فى الشعر فما بالك بالنثر.

ويبدو نزوع مطران الى السجع فى بعض كتاباته ، كقوله فى تأبين المرحوم بشارة تقلا صاحب الاهرام(١) ، (فلما مسته يد القضاء وآل من

---

(١) مجلة سركيس ١٥ من اكتوبر عام ١٩١٣ ص ٧٤٣ .

الفناء الى البقاء ، انبسط على سريره انبساط الراحة بعد العناء ، والتقى جفناه لأول مرة كما يلتقي جفنا الخلي النائم واستقر ضميره من همـــامة العازم وسكن قلبه من التوثب للعظائم ورأيناه في تلك الرقــدة واضح الجبين أغر المحيا عالي الصدر مرجوا مهيبا كما كان في الحياة ورأينا على مبسمه وفي جملة وجهه نورا لطيفا كأنه محصل من طلعة فجر ، يدفع اليه الحب ويمنع منه الوقار ألا وهو نور الخلود الطافى على وجه الفناء ...)

ويقول فى ختام المقال: (أفيما بين صباح ومساءعميد وطن يهوى ومنار أمتين يطفأ وبيت مجد يتداعى وصحيفة عمر حافل بجليل الأعمال تطوى ، وتاريخ خمس وعشرين سنة يختم ؟ .. افيما بين صباح ومساء يصبح الطفل يتيما والمرأة أيما والأم ثكولا ويصبح الرأى الذى كان عملا والعمل الذى كان رجلا والرجــل الذى كان فردا فى ملأ شــيئا من الهيولى الجـامدة فى رسم ساكن) .

وهذا المقال فضلا على أنه يمتاز بقوة العاطفة يجنح الى المحسنات اللفظية والمعنوية والتلوين العقلى والاشارة الى (الهيولى) أو الصورة التى ذكرها الفيلسوف افلاطون وانتقدها الفيلسوف أرسطوطاليس ، ويعتبر المقال نموذجا آخر من النماذج الفنية لنثر خليل مطران . وهناك نماذج أخرى لابد أن تدرك أنها لأول وهلة بقلم شاعر لابقلم ناثر كقوله :

وكان النسيم نهاية فى اللطف والنور غزلا وأوراق الشجر ندية اللمعان ..

كانت الشمس قد أقبلت على المغيب وبها من الجلال ما لم أر مثله فى سوالف أيامي واتفق ان كان منحدرها فيما بين هرمى الجيزة .

فالهرمان متكآن عظيمان من الذهب وسيدة النور بينهما نازلة الى خدرها على مهل .

ووراء الهرمين الى مدى غير محدود عجاجةمؤتلفة يختلط فيها اصفرار الرمال باصفرار الأشعة المنكسرة المنعكسة ، وتتخللها اعاريض زمرديةأو تحدها أوشحة لازوردية ..

ثم أنشأ صاحبى يقول بصوته الرخيم وبنغمه الصحيح الجميل :

ودواهى العيون نعم الدواهى	أيقظتنا للحب وهى سـواهى
واستعانت على القوى بهواهـا	فاســتعنا على الهــوى بالله

سمعت هذين البيتين فيه فاذكر انى تلك الصبيحة وشجوانى أشد من شجوهما الاول ، لان عبده (الحامولى) كان قد انتقل الى رحمة الله فاستعبرت .

وأقبلت على النافذة فاذا الشمس قد توارت بالحجاب وكان مساء) (١)

كتب مطران هذا المقال بعد أن طرب من عبده الحامولى فأطرب القراء كما يقول صاحب مجلة سركيس ، والملاحظ أنه لجأ الى وصفه بالنثر ولا يخلو مقاله من طباق أو جناس أو تضمين أو اقتباس بل انه ختم المقال بقوله (وكان مساء) وهذا القول مأخوذ من سفر التكوين الذى جاء فيه (وكان صباح وكان مساء ..) وعندى أن مطران في ميدان النثر الأدبى أشبه بشوقى فى أسواق الذهب . غير أن مطران لم يكن ينتج هذا النثر وحده ، انما خاض ميادين أخرى وبوسائل أخرى دفعته اليه الصحافة دفعا وأنتج نثرا عمليا على حد تعبير الدكتور عبد اللطيف حمزة فهو يتحدث عن مشروعات الرى وهو يناقش المسائل الاقتصادية الكبرى فى خبرة ودراية وتعمق وتبحر فى أسلوب سهل سلس ينم عن الثقافة الواسعة ويدل على التجربة والخبرة فى هذه الميادين وهذه كلها ميزات لم تتح لغيره من الأدباء بالقدر الذى أتيحت له .

فنثر مطران اذن لونان . لون أدبى يراعى فيه التأنق والزينة اللفظية والمعنوية والانسجام والموسيقى ، ولون اجتماعى (أو عملى) يعالج شئون الحياة بشتى أنواعها ومختلف صروفها وهو لا يعتمد فيه الا على الفكرة المشعة والرأى الصائب واللفتة الطيبة دون تنميق ودون تزويق ودون حط من قيمة الأسلوب الرفيع فى الوقت نفسه .

واللون الأول من النثر يصور نفسه كشاعر ولكن من غير بحر ، وناظم ولكن من غير قافية ، ويشيع فيه خيال الشعر واحلام وأوهام الشعراء وصور وتعابير أرباب القصيد واللون الثانى من النثر يصوره كصحفى يعالج مشاكل الحياة ويناقش أمور المجتمع فى أسلوب رصين وتفكير طلق سديد لايحده شىء ولا يقف فى سبيله عائق .

وينبغى أن نسجل فى ختام هذا الفصل أن قيمة مطران الادبية لا تعزى الى هذه الآثار النثرية ، انما تعود قيمته الادبية الى ما خلفه من شعر ، على اننا يمكن أن نعتبر نثره فى بعض الأحيان دلالة قوية وآية بينة

---

(١) مجلة سركيس ١٥ أكتوبر ١٩١٣ ص ٦٠٢

على ما وهب من موهبة شعرية نفاذة ومزاج فني رفيع لانملك الا أن نقف حياله معجبين متعجبين .

ومن أطرف القطع النثرية التى كتبها خليـل مطران تلك القطعة التى استقبل بها صدور الجزء الثاني من كتاب الأيام للأستاذ الدكتـور طه حسين وجاء فيها . (١)

(من ذلك الطفل الصغير فى كل معنى نشأ الرجل الكبير فى كل معنى .

من ذلك المتهجى الخـامل المغمور ، نشأ المعلم البعيـد الصيت فى الخافقين .

من ذلك الصبى الذى يستصبح بيد دليـله ، نشأ المصباح الهادى فى الآفاق .

من ذلك العيش الخشن الشظف ، نشأ الخلق المتين والصبر على مكاره العيش .

من تلك الحيرة فى تقويم الأود بدراهم معدودة ، نشأ القصد وصدق التقويم للنعمة .

من الحرمان المادى ، نشأ الايثار للمتاع المعنوى .

اقرأ الجزء الثانى من كتاب الايام . تشهد صور الايام التى عانى الدكتور طه حسين جهدها ، والليالى التى قاسى سهدها من بدء طلبه للعلم الى أن بلغ طوره الأول فى التأديب . صور لم يخطىء قلم راسمها دقيقةمن دقائقها ولا جليلة من جلائلها الا جلاها لك بما لم يسبق للقلم العربى ان عرض له أو أخذ به . فهناك حياة ، تشريد كل ما جرى فيها ، وهنـــاك أخبار وصفات ، ودروس للتدبر ، وعظات ، أدتها الفصاحة بأجمل العبارات وقرب فيها حسن الأسلوب كل ما بعدت مراميه من الاشارات .

قصة شهية اليمة مفكهة مهذبة ماأجدر كل عربى وكل عربية بأن يطالعها ليقتبس منها ماشاء الله من مغازيها) .

ففى هذه القطعة يقف مطران عند ناحية الفكرة وناحية الأسلوب فى القصة وهذان العنصران هما اللذان حققا النجاح لهذا الكتاب القيم ،

---

(١) مجلة الحديث بحلب يونيو عام ١٩٦٠ م

وتقريظ مطران صائب وطريف ، ما فى هذا شك لولا أنه حشره بالألفاظ القوية المجلجلة التى شغف مطران بها ، وكانت سمة أغلب الـــكتابات العربية فى هذه الفترة ، لولا هذه النهضة النثرية التى ترمى الى السهولة والعذوبة فى الأسلوب والسلاسة والرقة فى الألفاظ التى دعا اليها لفيف من كتاب الطليعة فى مستهل هذا القرن ، مثل لطفى السيد وطه حســين وعباس العقاد .

الفصل الثانى : ترجمات خليل مطران

المسرحيات الانجليزية :

يقول خليل مطران فى مقدمة مسرحيـــة (تاجر البندقيـــة) (١) Merchant of Venice. (أما من جهة العبارة وفصاحتهـــا والديباجة وروعتها ، فليس فى عزمى بالبداهة أن أجىء باستشهادات فى اللغـــة الانجليزية لتبين براعة شكسبير فى استخدام لغته على نحو لا يجارى فيه للتعبير عما يجول فى رأسه أو ينبض به قلبه ، وانما سأحاول أن أظهر تلك البراعة بأقرب ما ننسى مما كان النقل للأصل ، فيشعر متصـــفح الكلام وهو يقرؤه عربيا مبينا أن شكسبير هو الذى يتـــكلم) هل كان شكسبير هو الذى يتكلم حقا فى ترجمات مطران ؟ .. لا شك أن مطران حاول محاولات أكيدة للوصول الى هذه النتيجة ، ولعل أبرز هذه المحاولات انه لجأ الى هذه الألفاظ القوية التى يلجأ اليها شكسبير فى مسرحيـاته ، ويذكر اللفظة فى ثنايا الحديث ثم يشير اليها فى الهامش ويبين معنـــاها كما يفعل شراح شكسبير مثل سبلسبورى .Spilsbury.M.A ومارشال .Marshall وغيرهما من الشراح فى طبعة اكسفورد وكامبردج وغيرهما من الطبعات ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر كلمة (الغطاريف) التى فسرها بالسادة ، وكلمة (أوساق) التى فسرها بالتجارات، وكلمة (الهدارة) التى فسرها بالتى تجأر بأصواتها ، وكلمة (ماهن) التى فسرها بخادم ، وكلمة(الوكه) التىفسرها برسالة ، وكلمة الرزايا التىفسرها بالمصائب ، وما الى ذلك . وقد كان شكسبير يلجأ الى استعمال كثير من الألفاظ الكلاسيكية القديمة ، ولكننا ينبغى أن نسجل فى هذا المقـــام

---

(١) تاجر البندقية . تأليف وليم شكسبير . ترجمة خليل مطران ص ٧ .

ان شكسبير كان يكتب شعرا ، وانه كان متأثرا الى حد بعيــــد بالتراث اليونانى والرومانى القديم ، وانه استمد بعض مسرحياته من هذا التراث الخالد ، كما ينبغى أن نسجل أن شكسبير عاش بين عامى ١٥٦٤ ، ١٦١٦ ومعنى هذا انه عاش فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر . أما مطران فقد عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولم يترجم مسرحيات شكسبير شعرا ، اللهم الا فى أجزاءقليلة انما ترجمها نثرا وشتان بين الشعر والنثر ، وشتان بين هاتين الحقبتين من التاريخ ، وأذكر أن ميخائيل نعيمة فى كتابه الغربال كتب فى هــذا الصدد يقول :

(فاما أن مطران عربى يكتب بالعربية لابناء العربية ولا حاجة به اذ ذاك الى تفسير ما يكتب واما أنه يخاطب أبناء اللغة العــربية بلغة أعجمية وكان أولى به أن يخاطبهم بلغة يفهمونها، وفى الحالتين لا ضرورة للشروح والتفاسير ، الا اذا كان المترجم يقصد من ورائها أن يقول لقرائه (انــكم والله لقوم جهل لا تعرفون من لغة أجدادكم وشلا مما اعرفه أنا ، فتنــويرا لبصائركم وشفقة على جهلكم أفسر لكم ما أعرفه وتجهلونه..) (١)

كان مطران فى بعض الاحيان يأتى بالغريب فى ترجمته ومثال ذلك قوله «الحق بى فى الكنيس ، بدار يا طوبال» وذلك فى نهاية المنظر الاول من الفصل الثالث من مسرحية تاجر البندقية .

Meet me at our Synagogue good Tubal At our Synogogue Tubal

ولعــل كلمــة Synagogue قد راقت شكسبير فى أصلهـــا الانجليزى فأراد مطران أن يترجمهـــا بالكنيس لا بالكنيسة لأن اللفظة الاخيرة شائعة الاستعمال وتجرى على كل لســان فلا أقل من أن يلجأ الى الاسم المذكر منها حرصا على اناقة الترجمة وعلو كعبها ... ثم اسـمعه يقول ما أشبه جنون الشباب بالأرنب الوثاب ، وما أشبه العقل بالشرك الضعيف أفلت منه ذلك الأرنب فمضى لغير مآب ... ألا تلحظ فى هذه العبارة نزوعا الى السجع وحرصا على التوافق الموسيقى بين الجمل والالفاظ أكثر من العبارات الانجليزية .

Such a hare madness the youth,
to skip over meshes of good Counsel the cripple.

---

(١) الغربال ميخائيل نعيمة ص ١٧٨ .

الا اننى أجد مطران بلغ الذروة فى ترجمته لهذه القطعة من الفصل الخامس :

How sweet the moonlight sleeps upon the Bank.
Here will we sit and let the sound of music.
Creep in our ears, soft stillness, and the night
Become the touches of sweet Harmony
Sit Jessica, look how the floor of heaven.
Is thick in laid with patines of bright Gold.
There's not the smallest orb which thou behold'st
But, in his motion like an angel sings
Still quiring to the young eyes cherubines
Such harmony is in immortal souls.

واليك ترجمة خليل مطران :

ما أرق ضوء القمر فى انبساطه هادئا على وجه هذه المرجة الخضراء لنجلس ونشنف آذاننا بأنغام الموسيقى فان الظلام والسكوت أفضل مواقع الألحان .

أجلسى يا حبيبتى جسيكا وسرحى الطرف فى هذا الفضاء العلوى المحدد تمديد المستوى الخشبى الصقيل ، وقد رصع بمالا يحصى من الصحيفات الذهبية اللامعة . ما من جرم فى هذه الاجرام التى ترينها الا وهو ضام نغمته السماوية الى خورس الملائكة ذات العيون الملأى صبا ومثل هذا الشجن الشائق يتردد فى النفس الخالدة ... ص ٧٢

عندى أن مطران بلغ الذروة فى ترجمة هذه القطعة المسرحية ، لولا أنه كعادته استعمل بعض الألفاظ اللغوية الغريبة مثل كلمة خورس للدلالة على الجوق الموسيقى أو الفرقة الموسيقية كما أن لفظة تمديد قليلة الاستعمال واللفظة المستعملة (تمدد) غير أنها عربية فى أصلها .

وينتقده ميخائيل نعيمة فى تفسيره لمعنى Golden Fleece. الجزازة الذهبية بالقلادة الذهبية التى لها سيرة عندهم . فيقول انها ليست بالقلادة على الاطلاق ان هى فى خرافات اليونان الا جلد كبش ذهبى نجا على ظهره بطل من أبطال الخرافة ثم ذبحه وعلق جزازته فى غابة بعيدة وكان حازون البطل الذى ظفر بها بعد عناء طويل ، ويعيب ميخائيل نعيمة على مطران ترجمته بعض العبارات بأبيات تفقدها نصف معناها أو رونقها وعندى أن مطران لم يبعد عن الصواب عند ما ترجم الأبيات المنقوشة على كل من الصناديق الثلاثة الذهبية والفضية والرصاصية بالشعر ، وذلك

لان للشعر روعة وسحرا وايحاء يسمو على ايحاء الكلام العادى وليس من شك فى أن فتح الصناديق لمعرفة ما كتب فيها من المواقف البـــارزة فى المسرحية التى تحتم على الكاتب المسرحى أن يتناولها تناولا طيبا يتناسب مع دقة الموقف والتأثير فى مشاعر الجمهور ، وأكبر الظن أن الشعر يؤدى فى هذا المقام ما لا يؤديه الكلام العادى ٠

غير أن هذا الدفاع لا يعنى أن مطران أحسن بترجمة العبـارات الى الشعر لأنه أفسد المعنى فى بعض الاحيان أو أخل به كترجمته لعبـــارة

Who Choseth me shall gain, what many men desire.

من انتقانى فقد ظفر بما يتمناه كثير من الناس بقوله :

من اصـــــطفانى فقـــــدما
تمنت النـــــاس وصـــــلى

فليس فى الأصل الانجليزى ذكر للقدم أو الاصل أو ما الى ذلك ، اللهم الا أن مطران رغب فى الحرص على قافية واحدة فى الابيات الثلاثة ٠

وكذلك ترجمته لعبارة

Who chooseth me shall have as much as he deserves.

من انتقانى نال أقصى ما يستحقه ، فقد ترجمها مطران بقوله :

من انتقـــــــــــانى فانى
أهل له وهـــــو أهـــلى

وأظن أن معنى هذا البيت يقصر عن معنى الاصل الانجليزى وقل مثل ذلك فى ترجمته للعبارة الانجليزية

who chooseth me must give and
hazard many men desire.

من انتقانى عليه أن يجازف بكل مالديه ٠ فقد ترجمها مطران بقوله:

من انتقـــانى فأعـــزز بمـــا يهين لأجـــلى

وقد نلتمس لمطران بعض العذر لأنه لا يترجم برقيات اخبـــارية أو تصريحات سياسية أو معاهدة دبلوماسية لابد أن تصل الى القـــراء كما هى دون ادنى تحريف أو تغيير انما يترجم مسرحية يريد أن يؤثر بها على مشاعر النظارة ويستهوى بها أفئدتهم استهواء فالمترجم معـــذور اذن فى أن يصوغ الكلام على حسب طريقته واستجابته النفسية ٠

لما تناول خليل مطران مسرحية عطيل Othello ليترجمها أراد أولا وقبل كل شيء أن يعرب عنوانها فحوله من أوتللو الى عطيل ، ويقول فى مقدمة المسرحية أن عطيلا فى زعم القصاص الذى نقل عنه شكسبير أصل هذه الحكاية ، بدوى مغربى جلا الى البندقية وخدم فى جيشها حتى أصبح قائده الاكبر ، فاما أن يكون قد دعي منذ مولده باسم افرنجي وهذا غير محتمل ، واما أن يكون قد دعي باسم عربى حرفته العجمة فهو الأصح عقلا ٠

ويستطرد خليل مطران قائلا : فاذا رددنا أوتللو الى لسانه الأصلى فالذى يستخرج من حروفه أحد اثنين عطاء الله أو عطيل فأما عطاء الله فلم أتوصل الي تحقيق أن مغربيا واحدا سمي به ، ولهذا أضربت عنه صفحا ، واما عطيل فاعتقدت أنه الاخلق بالاختيار لسببين أحدهما أنه أشبه بما جرت عليه عادة العرب على تسمية الزنوج به من الفاظ التحبب امثال مسعود ومسرور ، ومعلوم أن عطيلا تصغير تحبب لصفة عطل بمعنى عاطل ، أى خلو من الحلية ، فتسمية أحد الزنوج به انما هى محاكاة صحيحة لاصطلاح العرب ، وثانيهما لان عطيلا يضم أوله ورفع آخره مع تخفيف التنوين أقرب الى أوتللو ٠

ولم يشأ الخليل أن يبقى اسم أوتللو فى المسرحية كما أورده المؤلف ، لانه كره أن يثبت فى العربية اسما من أسمائها على الرطانة التى حرفته الى العجمة لغير ما سبب سوى الشهرة التى اكتسبها على تلك الصورة ٠ أما أسلوب الترجمة فى المسرحبة فهو الاسلوب الوسط على حد تعبير مطران ، فلم يؤثر الاسلوب الجزل المتين القديم لان الروايات انما تكتب ليفهمها القوم ويستفيدوا منها مغزى بجانب التفكهة ، ولم يؤثر الاسلوب العامى ، لانه لو ملك تلك العامية لقتلها بلا أسف ، ولم يكن بقتله اياها الا منتقما لمجد فوق مجد ٠٠

فمطران اذن قد اعتمد على الأسلوب الوسط وهو الذى تكون بمقتضاه الالفاظ كلها فصيحةوسهلة ، وفكك الجمل تفكيكا يقرب مراميها من الأفهام بمحاكاته لفنون المحادثات المستجدة من غير أن يفوته الالتفات فى ذلك التفكيك الى أشتات ما صنع أدباء العرب من مثله لمناسبات مخصوصة ، وان لم يألفه جمهور الكتاب الاحتفاليين (١) ٠٠

ويمكن أن نلخص طريقة مطران فى ترجمة المسرحية فى نقطتين

---

(١) عطيل تأليف وليم شكسبير . ترجمة خليل مطران ص ٧ ٠

أولاهما حرصه على أن تكون عربية فصيحة لولا ورود اسماء لبعض الاعلام، وثانيتهما حرصه على أن تكون المسرحية تمثل أقوال شكسبير حرفا بحرف ولفظة بلفظة ، مع مراعاة انطباق كل منهمـــا على الاصـــطلاح الدينى أو الاجتماعى الذى لها عند القوم الممثلين ، فيصبح أن تكون هذه التجربة مثـــالا للتعريب يحتذيه طلبة المدارس . هذه هى طريقـــة مطران فى الترجمة كما أوضحها فى مسرحيته ، وهى توضح لنا أنها ترجمة حرفية ، على حين أن مطران نفسه لم يكن يترجم حرفيا ، ولعله قصد بذلك أنه حرص على ابلاغ معانى شكسبير كما هى للقارىء ، فتورط هذا التورط وصرح لنـــا بمذهب جديد فى الترجمة لا يلجـــأ اليه الا فى المعاهدات ونصوص الاتفاقات وما الى ذلك .

ولنتناول الآن بعض النمـــاذج من ترجمة شكســبير فى مسرحية عطيل ، انصت الى شكسبير وهو يقول على لسان براتسيو أحد الاعيان الى عطيل .

Oh thou Foule Theefe
Where haft thou stow'd my daughter ?
Damn'd as thou art thou haft enchaunted her
For he referre me to all things of sense
If she in the chainess of Magick, we re not bound
Whether a Maid, So tender, Fair and happie.
So, opposite, to marriage that she shuned
The wealthy curled Deareling of our nation.

ثم اسمع قول خليل مطران فى هذه القطعة (١) .

My mother had a maid call'd Barbarie
She was in love and he she lou'd prou'd mad.
And did forsake her, she had a song of willough
And old thing t'was but it express'd her, fortune.
And the dy'd singing it, that song to night
Will not go from the mind, I have much to do.
But to go hang my head all atone side.
And sing it like poore Barbarie. Prythee dispatch.

برانسيو : انت أيهـا السارق الخسيس ، أين أودعت ابنتى ؟ ، سحرتها يا رجل النار ! وأستشهد على جنايتك بأولى الألباب ، أكانتلولا

(١) عطيل ترجمة خليل مطران ص ١٠٩ .

السحر فتاة بتلك الرقة وذلك الجمال • فتاة ناعمة كل النعيم آنفة من الزواج الى حد أنها لم ترض بواحد من أغنى وأجمل شبان أمتها بعلا لها ، وانصت الى شكسبير وهو يقول على لسان ديدمونه •

كانت لامي وصيفة تدعى بربارا وكانت تعشق رجلا ، ذلك الرجل أصيب يوما بخبال وهجرها ، فكانت لا تفتأ تنشد أنشودة قديمة تعبر أحسن تعبير عن سوء بختها ، ولما حضرتها الوفاة قضت نحبها وهي تتغنى بها ، تلك الانشودة تعاود فكرى الليلة بلا انقطاع ، وأكاد لا أملك رأسى أن يميل الى جانب ، ولا لساني أن يردد أنشودة المسكينة بربارا ••

عجلى ولك الشكر •

ويقول الناقد الانجليزى جونسون أن لفظة مجنون التى جاءت فى عبارة شكسبير She lou'd prou'd mad تعنى كلمة متوحش Wild أو عنيف أو متحمس Frantic بينما يراها ريتسون Ritson بمعنى غير ثابت • أما كودن كليرك Cowden Clarke فيقول انها لا تخرج فى معناها عن الجنون Insane

أما خليل مطران فقد ترجمها بعبارة أصيب (بخبال) وهذه الترجمة تتفق مع رأى كودن كليرك •

ولما أقدم خليل مطران على ترجمة الانشودة لم يحاول أن يترجمها شعرا ولكنها كانت رائعة أخاذة •

اسمعه يقول :

ثوت الحزينة تبكى تحت الجميزة •
غنوا جميعا على الصفصافة الخضراء •
وضعت يدها على صدرها ورأسها على ركبتيها •
غنوا جميعا على الصفصافة الصفصافة الصفصافة •
وكانت المياه الباردة تجرى بقربها تتنهد تنهيدها •
غنوا على الصفصافة •
ودموعها تجرى حتى تلين الصخور •••

لم يحرص خليل مطران على الوزن والقافية فى هذه الأنشودة ، غير أنها من النماذج الطيبة لترجمته ، والذى نلاحظه فى هذه المسرحية بالذات أن مطرانا لم يلجأ الى الشعر لترجمة بعض العبارات ، ولعله فى هذه الرواية حور كثيرا من عباراتها وادمج بعض فصولها ومناظرها فى البعض

الآخر ، ورأى لابراز محاسنها بالتمثيل العربى الا يدع فصولها كما هى فى الأصل ، لان فيها اطالة لا تواتى الزمن ومقتضيات التمثيل الحديث. وكل ما ورد فى الحوار وهو يتضمن معانى شكسبير السامية ترجمه بكل دقة ، وحذف بعض الأحاديث الغريبة الواردة فى الحوار مما لا يدخل فى لباب الموضوع، ولكنه من قبيل تحليات المحادثات المسرحية رؤى باجماع الأدباء والمطلعين أن تخفيف حجم الرواية أصلح لها فى التمثيل وأصدق أثرا فى نفوس المشاهدين ، وادمج مطران فصول « هملت » الخمسة فى أربعة ولكنه لم يحذف شيئا مما يتعلق فيها باللباب ، واستغنى عن دخول وخروج بعض الاشخاص أو عن شروح وتعليقات ليست الا من قبيل التنويع ، ولا تدخل فى لباب المعانى النفسية السامية التى هى أعظم خصيصة لهذه الرواية ، واليك بعض الأمثلة التى جاءت فى ترجمة مطران :

جاء فى الفصل الأول من المسرحية على لسان برناردو هذه الجملة :

Br. : Who's there ?
Frant : Nay answer me, stand, and unfold your self.

ترجم مطران هذا الحوار كالآتى :

برناردو · من الزول تعرف ؟

فرنسيسكو · لا عليك الرد قف وقل من أنت(١) ؟

والملاحظ فى هذه الترجمة أن مطرانا استعمل كلمة (الزول) بدلا من أن يقول (من هناك) وأضاف كلمة (تعرف) على العبارة وهى غير موجودة فى الاصل ولعله ظن بهذا أنه يخدم اللغة العربية والاسلوب العربى البليغ ·

وتأمل ما جاء على لسان هوراسيو

He smote the sledded
Polacks on the ice, This strange

فترجم خليل مطران هذه العبارة بقوله :

« فاقتلعه من زحافته والقى به على الجمد يا للغرابة (٢) » ·

---

(٢) Hamlet by Shakspeare (edition 10th P.3 edited by Edward Dowden.

فخليل مطران قد ترجم Ice بالجمد والصحيح كلمة (الجليد) .

وتأمل ما جاء على لسان هوراسيو أيضا :

A mote it is to trouble the mind's eye.
In the most high and palmly state of Rome
A little are the mightiest Julius fell,
The graves stood tenantless and the sheeted dead.
Dis squeak and gibber in the Roman streets.

فترجم خليل مطران هذه العبارة بقوله :

انما الذرة من العثير تقع فى عين العقل فتقلقها وتزعجها حينما كانت روما فى بسطة دولتها ، وأوج صولتها ، وذلك قبل أن يسقط « يوليوس قيصر » من سماء جبروته . خلت القبور من سكانها وتمشى موتاها فى أكفانهم يصخبون ويئنون خلال الطرقات بروما (١) .

فخليل مطران ترجم كلمة mote بالذرة من العثير وهذه الترجمة خاطئة لأن معناها القذى ، أما الذرة فمعناها الآن Atom ومنها القنبلة الذرية Atomic Bomb وأظن أنه ليس من الضرورى استخدام كلمة العثير فى الترجمة .

وقد استخدم خليل مطران بعض الألفاظ والصيغ فى الترجمة وهى غير شائعة كقوله يا قلبى المقدود من الفولاذ كن طريئا كقلب الطفل الوليد ، فكلمة (طريئا) هذه غير مستعملة فى المسرح (٢) وقوله لئلا تلقى أبذرة الفتنة فى قلوب الذين لايخلصون لنا الحب فكلمة (أبذرة) أظن أنها غير مستعملة الآن وغير خليقة بأن يسمعها آلاف المتفرجين من الجمهور فى المسرح المصرى(٣) ، وقوله ربما كانت هذه جمجمة واحد من الجماعين للدنيا الشرائين للعقار فكلمة (الشرائين) صيغة مبالغة على وزن (فعالين) وأرى أن لا مجال لاستخدامها فى لغة المسرح أمام الجماهير (٤) .

---

(١) **Hamlet by Shakespeare P.7**

(٢) هملت ترجمة خليل مطران ص ١٣

(٣) **Hamlet, Shakespeare, p. 10.**

(٤) هملت للشاعر شكسبير ترجمة خليل مطران ص ٨٤ .
هملت للشاعر شكسبير ترجمة خليل مطران ص ٩٩
هملت للشاعر شكسبير ترجمة خليل مطران ص ١١٩

وقد يضيف مطران بعض العبارات فى الترجمة حتى تغدو مفهومة لدى المشاهد العربى كقوله فى ترجمة عبارة (لا يرتس) ·

I am satisfied in nature
Whose motive in this case should stir me most
To my revenge but in my terms of honour
I stand aloof and will no reconcilement
Till by some elder masters of known honour

فترجم مطران هذه العبارات بقوله (١) :

لقد أرضانى هذا الاقرار ارضاء وافيا بمرام من قلبى فلم يبق بى أدنى نزوع الى الانتقام غير أنه بقى علينـا أن نقوم بما يقتضينا الشرف من البراز واريد أن يشهد الشهود العدل ·

وأعتقد أن ترجمة مطران ترجمة معنوية وليست لفظية على الاطلاق فهو لم يتقيد بالكلمات انما فهم المعنى فهما طائرا وصـاغه فى الأسلوب العربى ·

وعندى أن الترجمة الصحيحة تكون على النحو التالى :

« اننى سعيد من أعماق نفسى لأن هـذا الدافع كان سيدفعنى فى هذه الحالة الى الانتقام · ولكن حفظا لكلمات الشرف سوف أظل بعيـدا عنه ولن ألتمس الصلح معه حتى يحكم قوم عدول بيننا (٢) ·

ولعل الذى دفع خليل مطران الى هذا الشطط فى الترجمة نقـله عن الأصل الفرنسى ، فلا شك أن ترجمة الترجمة تضيع بعضا من المعنى ان لم يكن كله فى بعض الأحيان ، زد على ذلك أنه استخدم بعض الألفاظ السخيفة مثل كلمة (براز) بدلا من مبارزة وان كانت الكلمة غيرموجودة أصلا فى النص الانجليزى ·

أما مسرحية مكبث Macbeth للشاعر الانجليزى وليم شـكسبير فقـد أدمج مطران بعض منـاظرها وفصولهـا فى البعض الآخر على النحو الذى فعله فى (هاملت) ومثـال ذلك أنه حذف المنظـر الأول من الفصل الأول فى الرواية بين الجنيات ·

وحذف المنظر الثانى من نفس الفصل كذلك الذى يظهر فيه مالكوم

---

(١) هملت ترجمة خليل مطران ص ١٢٤ ·

(٢) Hamlet, Shakespeare, p. 219.

ودونلبان ابنا الملك مع أبيهما وتكان ولينوكس القـــائد في جيش الملك وأحد الجرحى في ميدان القتال . واستهل المسرحية بالمنظر الثالث في الفصل الاول على أنه المنظر الاول من الرواية ...

وليس المشهد الثانى من الفصل الاول الا المشهد الخامس فى مسرحية شكسبير ، وادخل المشهد السابع فى المسرحية مع الســادس فى الفصل الثانى عنــد الترجمة وحذف من المشهد الســابع كثيرا من الحوار ، وفى الفصل الثانى حذف مطران المنظر الرابع، وليس المشهد الثانى فى ترجمة مطران فى الفصل الثــالث الا المشهد الرابع فى الأصــل وحذف مطران المشهد الثالث من هذا الفصل وحذف السادس كذلك . أما فى الفصل الرابع فقد حذف مطران المشهد الثاني وترجم الثالث على أنه الثانى .

وقد أطلق خليل مطران لخياله الشعرى العنان فى المسرحية فأضاف اليها كما حذف منها ومن الطريف أنه ترجم نشيد الجنيات الآتى :

Come high or low
They selfe and office deastly show

بهذه الأبيات :

أيها الطيف الــذى بالـــ	حجب الســود اســتتر (١)
ان تــكن ذا قـــدرة أو	لا تصعد من سقر ...

وأعتقد أن الترجمة العربية تختلف عن النص الانجليزى فى قليل وكثير ومن بعيد وقريب والترجمة الصحيحة .

احضر عاليـــــا أو واطئـــــا	وخـــبىء نفســـك ...
وركز جهــــدك فى الظهــــور	وانظروهو يترجم عبارة شكسبير

Mackbeth shall never be vanquishd be untill
Great Byrnam wood, to high Dunsmane hill
Shall come against him.

لن يغلب مكبث حتى تزحف غابة « برغم » على الجبل الرفيع وتهاجم قصر « دنسينان » المنيع (٢) ..

---

(1) Macbeth by Shakespeare P. 256 (Horace Furness Edition U.S.A.)

(٢) مكبث للشاعر شكسبير ترجمة خليل مطران ص ٧٥ دار المعارف

فمطران ترجم كلمة Hill بقصر وهذا غير صحيح لأن هذه الكلمة بمعنى تل لا بمعنى قصر • بلغ مطران القمة فى الترجمة وهو يخاطب الخنجر على لسان مكبث من المشهد الاول من الفصل الثانى •

Is this a dagger which I see before me.
The handle toward my hand ? Come let me Clutch thee
Art thou not fatall vision, sensible.
To feeling, as to fight ? or art thou but
A dagger of the mind, a false creation
Proceeding from the heat oppressed braine ?

ان هـذا خنجر يلوح لى متجه المقبض نحو يدى • أنلنى منـك ما تنضم عليه الأنامل تغر ولكننى ما أنفك أراك • الا يقع عليك اللمس كما يقع النظر ام لمست غير خنجر مخيل من وضع فكر ذاهل مخبل (١) •

وجاءت ترجمة مطران موافقة منسجمة في هـذه العبارة بعد دقات الجرس فى المشهد •

I goe, and it is done the bell invistes me.
Heareit not, Duncan, for it is knell
That Summons thee to heaven or to hell.

« لنمض (٢) فيما نويناه • الجرس يدعونى • لا تسمعه يا دنكان •• انه للصوت المشيع الذىيصحبك اما الى النعيم واما الى الجحيم (٣)•

وقد استخدم خليل مطران فى ترجمته بعض الجمل العربية القديمة مثل (عارى الاشاجع) واستخدم كلمة (التجاليد) بدلا من كلمة (الجلد) فقال (ضامر التجاليد) وهذه هى طبيعة مطران فى الترجمة • ينبش عن بعض الالفاظ والتعابير القديمة حتى يضفيها على الترجمة • وعذره فى هذا أنه يريد أن يخلق ترجمة رفيعة تقف فى صف واحد مع أصل أمير الشعراء وليم شكسبير ••• فاذا كان شكسبير يستعمل بعض الالفاظ القديمة فى مسرحيته فلا غضاضة عند مطران من أن يستعمل مثل هـذه الألفاظ حتى ترجح كفة على كفة فى الميزان •••

هـذه هى بعض المقارنات بين الاصـل العربى والانجليزى فى كل

---

(١) مكبث ترجمة خليل مطران ص ٢١ •

(٢) Mackbeth P. 126.

(٣) مكبث ترجمة خليل مطران ص ٢٣ •

من مسرحية تاجر البندقية وعطيل وهملت ومكبث وهى نماذج من المقارنات التى يمكن أن تعقد فى كل المسرحيات التى ترجمها مطران ، ولقد آثرت أن أرجع الى الاصل الانجليزى فى الترجمة وان كان كثير من المعاصرين لخليل مطران يقولون انه كان يترجم شكسبير عن الفرنسية غير أنه كان يجتمع ببعض المتعمقين فى دراسة اللغة الانجليزية وأدبها ويسألهم مراجعة الأصل الانجليزى الى جانب مراجعته ..

المسرحيات الفرنسية :

لقد كان خليل مطران فى ترجمته من الفرنسية أكثر توفيقا واحكاما ، وسنحاول أن نعطى للقارىء بعض الامثلة عن ذلك .

ترجم مطران مسرحية سنا Cinna للشاعر الفرنسى Corneille كورنى وهى مقتبسة من الكاتب اللاتينى سينيك Sénèque وتتلخص فى أن سنا أحب فتاة تسمى اميلى فاشترطت للزواج منه ان يثأر لأبيها من الامبراطور أغسطس بيد أن الامبراطور قد سئم الحكم وأخذ يفكر فى الاعتزال فأصبح «سنا» مضطرا الى أن يزين له البقاء على عرشه ، ليكون فى بقائه حجة تبرر قتله غير أن مكسيم شريكه فى المؤامرة على حياة أغسطس ، كان يحب الفتاة ويود لو يفوز بها فافشى السر الى رفيقه الخائن (ايفورب) حتى يكاشف به أغسطس فراودت رأسه الوساوس واجتاحته الهواجس وأخيرا قرر أن يقوم بدور انسانى نبيل وهو الصفح عن سنا وأميلى وعن مكسيم نفسه الذى كفر عن نذالته بالاعتراف على رءوس الاشهاد بنواياه الخبيثة وخيانته المزدوجة لـ«سنا» والامبراطور. لم يكن كورنى صاحب نزعة فردية فى مسرحياته Individualiste انما كان صاحب نزعة انسانية ظاهرة Humaniste وأشخاص مسرحياته يصدر عنهم الخير والكرم ويشعرون بسعادة بالغة فى تشييد دعائم الفضيلة(١) ، ولقد ظهرت هذه السمة بشكل واضح فى ترجمة مطران. اسمعه يقول على لسان اميليا فى الفصل الاول من مسرحية « سنا » .

---

(١) سنا ترجمة خليل مطران ص ٩٢ .

أيتها النزعات التي تجيش في صدري وتستنفد صبرى في سبيل انتقام جليل آثاره فى نفسى موت أبى • أيتها الحفائظ التى تدين بها حقدي وأحتضنها على غير هدى ، الى فطوفى بها على جماع نفسى ، مهلا على لحظات ، استرح قليلا ...

آه كف يا حبيبى عن هذه المغامرة المهلكة ...

كن كريما وتسامح له في الغلبة عليك فكما أعطيته أعطاك وأربى وأن ينتصر لم يكن نصره الا تاجا على هامتك (١) •

وقد أضاف مطران بعض العبارات في ترجمته فجاء في الاصل (٢)

Impatientes désires d'une illustre vengeance
Dont la mort de mon père a formé la naissance.

فقال مطران : « أيتها النزعات التى تجيش فى صدرى وتستنفد صبرى في سبيل انتقام جليل أثاره في نفسى موت أبى (٣) ..

استمع الى كورنيأولا وهو يقول على لسان اميليا في المنظر الثانى من الفصل الاول فى مسرحية سنا Cinna

Je l'ai juré fulvie, et je le jure encore
Quoique j'aime Cinna quoique mon coeur adore
S'il me veut posséder, Auguste doit périr
Sa tête est le seul prix dont il peut m'acquérir
Je lui prescris la loi que mon devoir m'impose.

ثم استمع الى ترجمة خليل مطران :

« أقسمت يا فليفيا ولا أزال أقسم أننى مهما أحببت سنا (٤) بل مهما احللته من قلبى محل العبادة فلا وصال بينى وبينه الا بعد هلاك

---

(١) سنا تأليف كورنى . ترجمة خليل مطران ص ١ (دار الطباعة ١٩٣٣)

(٢) Théâtre de Corneille, p. 122, Paris. (Garnier Frères)

(٣) « سنا » ترجمة خليل مطران ص ١ دار الطباعة الاهلية ١٩٣٣ .

(٤) « سنا » ترجمة خليل مطران ص ٤ .

أغسطس • رأس هذا العاهل هو الثمن الذى يشترينى به ، وما أسومه الا الحكم الذى يقضى به على الواجب» •

فمطران فى هذه القطعة يحرص على معانى الالفاظ بل انه يكررها كلمـا تكررت فى الاصل وحدث ذلك فى لفظة مهمـا Quoique الا أنه لا يترجم حرفيا انما يحرص على جمال الجملة فـكان فى وسعه أن يقول مهما عبده قلبى وليست هذه العبارة كثيرة الاستعمال فى الادب العربى، انما هى مستعملة بشكل أوسع فى الأدب الأوربى ، والقارىء أو المستمع المصرى تألف أذنه جملة «أحله من قلبه محل العبادة» عن أية جملة أخرى وترجم مطران Loi هنا بالحكم وليس بالقانون وهذا تصرف جميل فى الترجمة لأن الأصل فى كلمة Loi القانون •

ومن هناك نلاحظ أن خليل مطران كان يعتنى عناية خاصة بأسلوبه فى الترجمة وايصال المعـانى الى ذهن القـارىء أو السامع فى طريقـة جميلة وأداء بديع •

استمع الى كورنى وهو يقول فى المنظر الرابع من الفصل الثالث فى هذه المسرحية على لسان اميليا (١) •

Il peut faire trembler la terre sous ses pas.
Mettre un roi hors du trône et donner ses états.
De ses proscriptions rougir la terre et l'onde.
Et changer a son gré l'ordre tout le monde.
Mais le coeur d'Emilie est hors de son Pouvoir.

ثم استمع الى خليل مطران فى ترجمة هذه القطعة •

قد يستطيع أغسطس أن يزلزل الارض تحت قدميه وان يخلع ملكا عن عرشـه واهبا بلاده لغيره • وأن يخضب وجه البر والبحـر بدماء المغضوب عليهم وان يغير نظام الدنيا على ما يشتهى ، أما قلب اميليا فما له عليه من سـلطان (٢) • الا تجد أنه أحسن اختيار الفعـل زلزل فى ترجمته ••• ان المعنى الحرفى للعبـارة ••• تجعلهـا ترتجف Faire trembler أو ترتعش كما أنه أحسن اختيار الفعل يخضب البر والبحر rougir la terre et le monde
بدلا من أن يقـول يجعل الارض حمراء اللون وزاد كلمة (الوجه) فى

---

(١) Théâtre de Corneille, p. 136.

(٢) سنا ترجمة خليل مطران ص ٥٢ •

الترجمة حتى يعطى الجملة رونقا وبهاء.· وغير خاف أن مطران يترجم الشعر بالنثر فمكنه هذا من التصرف لأن ترجمة الشعر بالشعر تقيد المترجم تقييدا كبيرا · الا أننا ينبغى أن نسجل أن أسلوب كورنى فى مسرحيته الفرنسية يتدفق عذوبة وجمالا وسحرا وابداعا ·

وقد تتغلب الصنعة على مطران فى ترجمته فيتعمد الى السجع كما جاء فى هذه العبارة (١) ·

Que laissez-moi périr ou laissez-moi régner.

فقال مطران دعونى أهلك أو دعونى أملك (٢) ···

وقد يستعمل مطران الالفاظ العربية الصحيحة كلفظة « كنود » (ان الانسان لربه لكنود) ·

فجاء فى الأصل على لسان أغسطس فى المنظر الثانى بالفصل الخامس ·

Qui je vous unirai couple ingrat et perfide

وجاء فى ترجمة الاصل « نعم سأجمع بينكما أيها الكنودان الخائنان (٣) » ·

واستعمل مطران بعض العبارات الشائعة مثل (الصديق الصدوق) وهى من خصائص اللغة العربية التى لا توجد فى اللغة الفرنسية فترجم هذه العبارة التى قالها أغسطس لماكسيم أو قالها امبراطور روما لرئيس المؤتمرين به المساعد (٤) ·

Approche ; seul ami j'éprouve, fidèle.

فقال فى الترجمة (اذن أيها الصديق الصدوق الأوحد) ·

ولم تغرب البلاغة العربية عن خليل مطران فى الترجمة فآثر الكلام المسجوع ليحل محل القافية فى الشعر الفرنسى فترجم هذه العبارات على لسان اميليا كريمة تورانيوس الوصى على أغسطس والمغضوب عليه فى مدة حكم الثلاثة (٥) ·

---

(١) **Théâtre de Corneille, p. 143.**

(٢) سنا ترجمة خليل مطران ص ٦٦ ·

(٣) **Théâtre de Corneille, p. 156.**

(٤) سنا ترجمة خليل مطران ص ٩٠ ·

(٥) **Théâtre de Corneille, p. 156.**

Ma haine va mourir, que j'ai crue immortelle.
Elle est morte et ce coeur devient sujet fidèle.
Et prenant désormais cette haine en horreur.
L'ardeur de vous servir succède à sa fureur.

(١) فقال مطران « يموت حقدى وكنت أظنه أبديا . بل مات الساعة وأصبح قلبى وليا وفيا سأستقطع منذ اليوم ذلك الحقد وستحل محل بغضائى حميتى الصادقة فى خدمتك (٢) ..

ويقول أغسطس فى نهاية الفصل الخامس ونهاية الرواية(٣) :

J'en accepte l'augure et j'ose l'espérer.
ainsi toujours les dieux vous daignent inspirer

فقال مطران فى الترجمة :

« اتقبل هذه البشريات وأرجو أن تتفضل عليك الآلهة دواما بالالهام(٤) .

وأرى أنه لا ضرورة لاستعمال البشريات فى الجمع لانها فى الاصل الفرنسى غير مستعملة فى الجمع ولعله بعد ذلك أعتقد أن لفظة (دواما) أجمل من (دائما) فى ترجمة كلمة toujours التى يعرفها الصغير والكبير وتشيع على كل لسان ... ونقل خليل مطران الى العربية عن الفرنسية كذلك مسرحية (هرنانى) من روائع فيكتور هوجو التى أثارت ضجة فى المسرح الفرنسى حينما مثلت بل أحدثت معركة حقيقية بين جدران المسرح ابان تمثيلها . وكان يناصر هوجو فيها جماعة من الشباب ويعارضه قوم ممن استمسكوا بالتقاليد المسرحية ودوى فى المكان صوت قائل (اقتلوه ...)

وقد اعتبر النقاد مسرحية (هرنانى) فاشلة من الناحية المسرحية لعدم خضوعها لتقاليد المسرح ، الا أنهم عدوها ناجحة بما تشتمل عليه من ألوان الأدب الوجدانى الرفيع ، الذى هو صميم الحركة الابتداعية الرومانسية فى الادب الفرنسى وقد وفق مطران الى حد بعيد فى نقل هذه المشاعر الى اللغة العربية فى أسلوب سليم .

---

(1) Théâtre de Corneille, p. 157.

(٢) سنا ترجمة خليل مطران ص ٩٤ .

(٣) Théâtre de Conreille, p. 159.

(٤) سنا ترجمة خليل مطران ص ٩٦ .

وكثيرا ماكان يستخدم الألفاظ العربية المفردة في الدلالة على العبارة الفرنسية المطولة كما جاء في هذا النص (١) ٠

La Belle adore.
Un cavalier sans barbe et sans moustache encore.
Et reçoit tous les soirs malgré les envieux;
Le jeune amant sans barbe à la barbe du vieux.
Suis bien informé.

فقال ان الحسناء مغرمة بشريف لم ينبت بعد عارضاه ، وان ذلك الأمرد ليزورها في كل ليلة فلا تبالي العوازل ولا تكترث للحية الشيخ المسن ٠٠٠ أصحيح ما أعلمه (٢) ٠٠٠

فاستخدم مطران كلمة (أمرد) في الدلالة على حليق اللحية والشارب في النص الفرنسي ٠

وتصرف مطران في ترجمة بعض العبارات كما جاء في هذا النص (٣) ٠

Le Duc vieux future est absent à cette heure ?

فقال (هل الدوق خطيبها الهرم غائب الساعة ٠٠٠) (٤) فترجم كلمة Future بمعنى الخطيب ٠٠٠ وهذا تصرف ملحوظ في الترجمة غير أنه لا غضاضة عليه ٠

وتأمل ترجمته لهذه العبارة (٥) :

Qui Carlos seigneur duc, est tu donc insensé.

(نعم كارلوس أيها الدوق ٠٠٠ هل زايلك صوابك) (٦) ٠

فعبارة (هل زايلك صوابك) بالاضافة الى أنها عربية سليمة تفيد المعنى أكثر من الترجمة الحرفية ٠

وعندي أن مطران بلغ القمة في الترجمة حين صور غرام هرناني في هذه القطعة ٠

---

(١) **Hermani de Victor Hugo P. 12 (Hezel Edition)**

(٢) رواية هرناني ترجمة خليل مطران ٠ المطبعة الحديثة ص ٧

(٣) **Hermani de Victor Hugo P. 12**

(٤) هرناني ٠ فيكتور هوجو ص ٧ ٠

(٥) **Hermani de Victor Hugo P. 33**

(٦) هرناني ٠ فيكتور هوجو ص ٤٠ ٣٧

Parle moi, ravis moi, N'est-ce pas qu'il est doux.
D'aimer et savoir qu'on vous aime a genoux ?
D'être deux ? d'être seuls ? et que c'est douce chose.
De se parler d'amour la nuit quand tout repose ?
Oh ! laisse-moi dormir et rêver sur ton sein.
Donasol mon amour ma beauté (1)

حدثيني • أخلبي لبي • ما أشهى الغرام ورؤية المحب جاثيا على قدمي حبيبه •

ما أحلى أن نكون اثنين في عزلة وان نتشاكى الهيام والناس نيام دويناسول يا بديعة الحسن يا صبابتي دعيني (٢) أضع على صدرك رأسي وأغمض عيني) •

والملاحظ أن مطران ابتغاء للبلاغة اللغوية يتصرف في المعنى ، فمثلا يقول في هذه العبارة (نتشاكى الهيام والناس نيام) ولا شك أن لهذه الجملة رنة موسيقية عذبة في آذان السامع أكثر من قولنا :

(نتشـاكى الحب في الليـل عندما يستريح الجميع •••) فحذف كلمة الليل في الترجمة بغيـة الوصول الى الكمال وحلاوة الموسيقى في الأداء الفني •

وقد يأتي مطران ببعض الألفاظ ذات القعقعة في أثناء الترجمة حتى يثبتعلو كعبه في اللغة فيقول مثلا في ترجمة هذه الفقرة (٣) :

Hélas j'ai blasphamé si j'étais à ta place.
Donasol, j'en assez, je serais lasse.
De ce fou furieux, de ce sombre insensé.
Qui ne sait caresser qu'après qu'il a blessé.

أراني وا أسفاه سفهت على الطهارة واتهمتها • آه يا ديناسول لو كنت في مكانك لفني صبري وتعبت من هذا المجنون (المرد) عن هـذا المعتوه (المكفهر) الذى لايعرف المداعبة الا بعد أن يخمش ويجرح••)(٤)

(١) Hernani P. 16

(٢) هرناني . فيكتور هوجو ص ٧٤ •

(٣) هرناني . فيكتور هوجو ص ١٠٠ •

(٤) Hermani P. 60.

يقول هرنانى فى الفصل الثانى هذه العبارة :

Je suis banni je suis proscrit .. je suis funeste

فيترجم مطران هذه العبارة بقوله :

(أنا مجرم طريد • أنا شؤم وشقاء ••)

وتقول ديناسول فى الصفحة نفسها :

Vous ê tes ingrat.

فيقول مطران (أنت كنود •••)

وهكذا يلجأ مطران الى الألفاظ العربية الصحيحة ، ليثبت أنه يغوص الى الاعماق باحثا عن الدر والعقيان •

وقد يبدو مطران سخيفا فى الترجمة أحيانا ومثال ذلك ترجمة عباس (دون جارس) الآتية على النحو التالى (١) :

Avez-vous remarqué Messieurs, parmi les fleurs.
Les femmes les habits de toutes les couleurs.
Ce spectre, qui, de bout contre un balustarde.
De son domino noir tachait la mascarade ?

(المحتم أيها السادة بين الرياحين والنساء (والألبسة) الجمة الألوان ذلك الشيخ المعتمد على (الدرابزين) فى ثياب سوداء تقع موقع الشائبة من صفاء العبد •••) (٢)

ولست أدرى كيف يستسيغ مطران استخدام كلمة (الدرابزين) العامية بدلا من حاجز السلم وهو الذى عودنا أن يبحث فى أغوار اللغة عن الالفاظ الرنانة والكلمات الطنانة ! •

لا شك أن مطران قد ترجم هذه المسرحية على فترات ، وكان فى بعض الفترات « متجليا » أما فى الفترات الاخرى فكان تعبا مكدودا ويظهر أن مطران ترجم هذه الفترة وهو نصب مجهد • مما كان له أكبر الأثر فى الترجمة •••

وجملة القول فى ترجمة مطران أنها كانت تجمع بين الدر والحصى

---

(١) Hernani P. 145

(٢) هرنانى • فيكتور هوجو ص ١٩٣ •

والبتر والحجر الا أنها كانت فى النقل عن الفرنسية أدق منها فى النقل عن الانجليزية ولعل ذلك يرجع الىأن مطران يترجم المسرحياتالانجليزية عن الفرنسية والترجمة عن الترجمة تضعف المعنى ان لم تفقده ٠

كما أن مطران يحاول أن يستخدم الألفـــاظ العربيـــة الصحيحة ويغوص من أجلذلك الى أعماق اللغة لينقبعن الكلمات الرنانةوالعبارات الطنانة ويستعمل كل ثقافتـــه فى هذا الميدان سواء فى الشعر أو فى القرآن أو أمثال العرب أو غير ذلك من مصادر الثقافة ٠

ومطران قد يتصرف فى الترجمـة وقد يحذف بعض العبـارات فى سبيل الوصـول الى نغم موسيقى عذب يشيع فى الكلمات ويتمشى مع العبارات ٠ ومطران شاعر وذواقة للشعر ونصير لاشعار الحب والغرام ، ومن أجل ذلك كانت ترجمته للفقرات الوجدانية تسمو الى القمة وتبلغ الدروة لأنه قد يعبر بهذه العبارات غير المباشرة عن شعور مباشر يجيش فى صدره ويعتمل فى قلبه ويضطرب فى فؤاده ،فاذابعبارات الحب تتدفق فى أسلوبه عذبة كالرؤى ٠٠ جميلة كالأحلام ٠٠ ساحرة كالأنغام ٠ تستلب اللب وتستحوذ على مجامع القلوب ٠ وهكذا كانت ثقافة مطران تلم من كل شىء بطرف ٠ فيها عناصر الثقافة العربية الصحيحة وفيها عناصر الثقافة الغربية ، ولا شك أن عقلا هذا كيانه وهذه سماته لابد أن يكون عقلا ممتازا وذهنا وقادا وقريحة صافية ٠

ولا بد أن يكون الانتاج الفنى بعد هذا شـاملا كاملا أو أقرب الى الشمول والكمال ، على أننا ينبغى أن نسجل فى هـذا الفصل أن مطران كان شاعرا أولا وقبل كلشىء لانه رزق موهبة شعرية رقيقة٠ أما ما اطلع عليه من علوم ومعارف ، فلأنه كان رجلا قراء يحب القراءة والاطلاع ، ويريد أن يلم من كل شىء بطرف أما ما سلك سبيله من أعمال فى الحياة فانما دفع اليها دفعا وسيق اليها سوقا ٠ أو لأنه شـــاعر ٠٠٠ وشاعر موهوب أولا وقبل كل شىء ٠٠٠

ونحن اذا دققنـا البحث فى تاريخ صدور هـذه الترجمات وجدنا مسرحية (تاجر البندقية) خرجت عن دار الهلال عام ١٩٢٢٠ أما ترجمة الخليل لمسرحية (عطيل) فقد خرجت عن مطبعة المعارف خلال الحرب ٠

وبروكلمان لايشيرفى (تكملة تاريخ الآداب العربية) فى الفصل الذى عقده مطران شاعر العربية الابداعى الذى نشره فى المقتطف عام ١٩٣٩ لم يستطع الاهتداء الىتاريخ صدور هذه المسرحية غير أنهرجح لاعتبارات

وقرائن لم يشر اليها انهـا صدرت قبل مسرحية (تاجر البندقيـة) في فترة الحرب أو في سنة الحرب نفسها ، وقد ظهرت في أوربا في الربع الاول من القرن العشرين والنصف الاخير من القرن التاسع عشر ترجمات فرنسية لمسرحيات شكسبير . وقدظل شكسبير مجهولا في القارةالاوربية ما يزيد على مائة عام بعد موته ، وكان الفضل الاول في الكشف عنه لفولتير في رسائله الفلسفية ، ولكنه نقده مر النقد لما في مسرحيـاته من حرية فنية وعدم تقيد بوحدة الزمان والمكان والحدث ، ثم انه يعرض على المسرح مناظر الحرب أو القتل مما يضيق به الكلاسيكيون الذين يكتفون في مثل هذه المناظربحكاياتها علىلسان الابطالالآخرين ، وقد ظفر شكسبيربتعظيم في القارة الاوربية على أثر حـديث فولتير ، وما لبث أن أعجب الكتاب الفرنسيون به فأقبـلوا على ترجمتـه وترجم فيكتور هوجو بعض مسرحياته الى الفرنسية ، ومن الترجمات التي ظهرت في عامي ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ مجموعة كاملة لمؤلفات شكسبير نشرها ناشر يسمى ديديه وشركاه Didier وقـد ترجمهـا الى الفرنسـية أديب يسـمى م . جيزوت M. Guizot كما نشرت دار النشر المسماه هاشيت Hachette في باريس في عامي ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ ، ترجمة أخرى لمسرحيات شـكسبير في مجلد واحد وقد ترجمهـا الى الفرنسية أديب فرنسي يسـمى اميل مونتجوت Emile Montegut .

ونشرت بعد مؤسسة لاروس Larousse ناشرة القـاموس العالمى المسمى باسمها مجموعة مختارة منمسرحياته ترجمها وعلق عليها الاديب الفرنسى جورج روث Georges Roth .

ونشرت دار ارماندكورلين Armand Colin عام ١٩٢٠ مجموعة أخرى من مسرحياته ترجمهـا الى الفرنسـية الأديب الفرنسى اميـل ليجوى Emile Legouis .

ونشرت المكتبة الدولية في باريس ترجمة لمسرحية (عطيل) عام ١٨٨٣ كمـا نشرت دار آثييه Hatier ترجمة أخرى للمسرحيـة نفسها عام ١٩٢٣ م .

ولا يسـتبعد أن يكون مطـران لجأ الى ترجمـة فرنسية من هـذه الترجمات ليترجمهـا الى العربية لأنهـا كانت الشـائعة في عصره وقت انكبابه على الترجمة .

الفصل الثالث : تحقيق شعر ابن قلاقس

من الأعمال الأدبية القيمة التى أنجزها خليل مطران فى حياته تحقيق ديوان الشاعر ابن قلاقس ، ورب سائل يقول من هو ابن قلاقس فنجيبه بأنه أحد الشعراء النابهين الذين نبغوا فى القرن السادس للهجرة وكانت ولادته فى الاسكندرية يوم الأربعاء من شهر ربيع الآخرة ٥٣٢ هـ وتوفى ثالث شوال ٥٦٧ هـ بعيذاب ودخل صقلية فى شعبان ٥٦٣ هـ .
وعيذاب بلدة على شاطىء بحر جدة وقد عثر مطران على نسخة

مخطوطة من هذا الديوان فىمكتبة صديقه الاديب ابراهيم فاضل متخلفة عن والده الشاعر المرحوم مصطفى توفيق . نجل المرحوم ابراهيم الفريق المعروف برقة نظمه ولطف أساليبه فى الترسل وتوشية الاناشيد.وتردد مطران حينا دون الشروع فى نشر الديوان على علمه أنه لا توجد منه الا نسخة واحدة فى مكتبة باريس ، وأخرى فى مكتبة ديانا ، وثالثة فى مكتبة برلين ، وقد أرشده الى هذه النسخ أحدالباحثين العارفين هو مسيو جاليتيه من المشتغلين الفرنسيين بالعلوم العربية فى المدرسة التىيديرها الأثرى العالم مسيو اميل شاسينيه ، ولولا هذه النسخة التى بين أيدينا لبقى الناطقون بالضاد محرومين أثرا نفيسا من آثار البيان الادبى العظيم، ويقول مطران فى مقدمة الديوان انه تردد فى نشره لأنه لم يجد فيه ما يخرج عن طريقة النظم المألوفة فى تلك الأيام وان كان النظم بذاته جيدا رائقا غير أن أحد أصدقائه وهو السيد محمد على غالب نجل المرحوم عثمان (باشا) غالب وكيل الحربية الأسبق أقنعه أن هذا الديوان انما هو قطعة من حياة جيل، وانه صورة رجل من صفوة أدباء العرب ، لايكاد يخلو تاريخ لعصره من ذكره ، وان جمهورا كبيرا من الناس يتوقعون لمعرفة شىء من شعره ، وانه لو لم تنشر دواوين جميع الشعراء الذين ساروا على طريقة واحدة بمثل هذه الحجة ، لفقدنا أكبر جزء من تاريخنا وأجمل حلية فى

صرح مجدنا فلهذا استخار الله ونشره ، فجاء ـ على حد تعبيره ـ على نحو يحبه الراغبون فى احياء كل ذكر عربى وتجديد كل أثر أدبى .

فخليل مطران يقر ويعترف اذن فى مقدمة هـذا الديوان أن شعر ابن قلاقس ليس بذى خطر انما هو شعر عادى يجرى على النحو الذى ألفه الشعراء واعتاد النقاد سماعه ، ولكنه برغم هذا لجأ الى تحقيق الديوان خدمة لتاريخ الادب وصونا للتراث الادبى القديم ، فهل حقق خليل مطران فى هذا الديوان ما كان يرمى اليه أم خانه التوفيق فى أهدافه ؟

الواقع أن خليل مطران ليس برجل باحث مدقق محقق انما هو رجل شاعر أولا وقبل كل شيء ، يمتاز بحاسة شعرية رفيعة ويتمتع بموهبة أدبية سامية ، فهو رجل يستخدم عواطفه أكثر مما يستخدم عقله ، وهو رجل تستبد به العاطفة الجياشة والاحساس القوى فتكاد تصرفه عن نفسه صرفا . خليل مطران رجل ليس فى وسعه أن يحقق كل كلمة وكل لفظة جاءت فى هذا الديوان ، لأن هذا العمل يحتاج الى رجل من طابع آخر ، يحتاج الى رجل اوتى القدرة والصبر على البحث وعلى الاحصاء والاستقصاء ، وعلى السفر الى مختلف جهات العالم من أجل الوصول الى الحقيقة وابتغاء تحقيق بيت من الابيات . هذا العمل محتاج الى رجل يسافر الى برلين مرة والى باريس مرة والى ديانة مرة فى سبيل احضار أو الاطلاع على النسخ الاخرى لمقاورنتها ومعرفة وجوه الاختلاف ووجوه التفرقة بينها ، لا رجل يقبع فى القاهرة ويظل حبيس مكتبة ثم يخرج الديوان على الملأ ، يقول لهم لقد أحضرت لكم تحفة أدبية ليس لها مثيل من قبل أو من بعد ...

هذا العمل الادبى وهو عمل تحقيق الشعر يحتاج الى ميزات أخرى تتفاوت كل التفاوت عن الميزات التى اختص بها مطران، ولكن الكتاب على أية حال فى وضعه الراهن ينم عن مجهود أدبى لا بأس به من جهة ، وحرص على الأمانة فى الرواية من جهة أخرى ، واعترف مطران نفسه بأن ابن قلاقس يمكن تقسيمه الى أربع طبقات ... طبقة ابتكر فيها المعانى فبلغ معها أعلى مراتب المجيدين .. وطبقة جود فيها اللفظ فلم ينحط عمن اشتهروا بالصياغة .. وطبقة لا يرتفع فيها قريضة بلفظه ومعناه عن متوسط الشعر .. وطبقة سقط فيها شعره الى حد أن القارىء لا يهتدى الى اقرار كلمة فى مقرها ، ولا معنى فى قابله . ولهذا تسامح فى ابقاء أبيات سقيمة ومواضيع غير مفهومة على حالتها التى انتهت بها ولم يستجز التغيير ولا التبديل .

وقد صور مطران في ديوانه حياة (عوادة) كانت تعيش على أوتار عودها وعلى ما تجمعه من النـاس من احسان ، والغريب أن ابن قلاقس فتن بهذا اللون من النســاء وطرب من هـذا الضرب من الفن فقال في عوادة :

عوادة غنت لنـــا صـــوتا يشبهه نزع الروح والموتا
شبهتهـا من فـوق أوتارهـا بعنـكبوت نسـجت بيتا (١)

والأبيات أقرب الى الهجـاء منها الى المدح ، غير أنهـا تمثل اتجاه التفكير عند ابن قلاقس الذي دار حوله بعض شعر مطران كقوله :

أشــيرى الى عاصى الهوى يتطوع ونادى المنى تقبل عليـك وتسرع
الى كم تطـوفين الربوع تســولا تبغين صوت العود للمتسمع (٢)

وفي ديوان ابن قلاقس بعض الاخطاء التي لا أعـلم هل هي تعزى الى المطبعة أم الى المحقق نفسه ، كقوله : قال ابن قلاقس يمدح السبنس بالباء قبل النون والصحيح (السنبس) (٣) بالنون قبل الباء نسبة الى سنبس وهي من بطون قبائل العرب ، كما قال :

قال ابن قلاقس يمدح الواري عمران بعدن والصحيح (الدارعي) عمران بعدن كما جاء في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (٤) ·

وروى مطران البيتين الآتيين لابن قلاقس على النحو التالي :

هـلال سـعد يجـلي كل واجبـه ظلامها ليس يمشى فيـه بالسرج
ونطفة من صميم المجد ما برحت تجـول من مشـج ذاك الى مشـج

والمشج هو الخلط ومشج بينهمـا خلط من باب ضرب وارجح ان ذاك بالزاى (زاك) لا بالذال لأن النطفة تكون زاكية لا ذاكية والمشج زاك لا ذاك وزكا الزرع يزكو زكاء بالفتح والمد أى نما وزكا الأصل أى رفع ·

كما نقل مطران بعض الأبيات عن ابن قلاقس في مدح السـلطان شاور والتعريض بالسلطان شيركوه وذكر اسم شاور فقال الســلطان (شاو) وغني عن البيان ان هذا خطأ بل ··· الغريب ان مطران يقول

---

(١) ديوان ابن قلاقس تحقيق مطران ص ٢١ ·
(٢) ديوان ابن قلاقس تحقيق مطران ص ١٥ ·
(٣) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٠٥ ·
(٤) ديوان ابن قلاقس تحقيق مطران ص ٤٥ ·

فى صدر كتابه عن ابن قلاقس اللخمى الأزهرى الاسكندرى الملقب القاضى الاغر فى حين يقول ابن خلكان فى وفيات الاعيان (١) ان ابن قلاقس هو أبو الفتوح لا (أبو الفتح) والفرق ظاهر بين (أبو الفتوح) و (أبو الفتح) •

وروى مطران أبيات ابن قلاقس فى مدح أبى القاسم بن الحجر على النحو التالى :

ما امتطينا أخت السحائب الا	لتوافى بنا أخا الامطار
كل نور من المراكب فيها	ألف مستقيمة للصوار (٢)

وغنى عن البيان أنه لابد من تثبيت الياء فى آخر كلمة (الصوارى) أى لا داعى لحذفها من البيت وليست هناك قواعد نحوية تجيز الحذف فى مثل هذه الحالة •

وبالرغم من أن تحقيق مطران لديوان ابن قلاقس يتسم ببعض الهنات والهفوات فانه جهد مشكور وسعى محمود على أية حال فى سبيل خدمة الادب ، ولا سيما اذا راعينا أن مطران رجل يشتغل بالشعر لا بالبحث ، ولا بتحقيق النصوص واستخدام قواعد النشر ، وذكر مطران فى ختام الديوان أن هناك رواية شعرية لابن قلاقس وصف فيها فتاة (وهى تمثيل للأمة المصرية) ووصف عشاقا لها متهالكين عليها (هم الدول الطامعة فى ملك مصر وجعلها آية من آيات العصر بحسن ديباجتها وجمال ترتيبها وتركيبها • وتمنى مطران أن يوفقه الله الى العثور على تلك التحف المفقودة فيجمعها فى ديوان يزيد جوهره فى تاج مصر ، ويكون واسطة فى قلادة العصر ولكن مطران فيما يبدو لم يوفق للعثور على هذه الخريدة أو قل عثر عليها ولم تتح له الظروف أن ينشرها •

ولو أننا لاحظنا أنه أخرج تحقيق هذا الديوان عام ١٩٠٥ وكتب فى صدره (ديوان ابن قلاقس وهو من فحول شعراء القرن السادس للهجرة راجعه وضبطه ومثله للطبع خليل مطران صاحب الجوائب المصرية وطبع بمطبعة الجوائب فى شارع عبد العزيز تجاه حديقة على باشا شريف بمنزل الدكتور حسن بك محرم) لو أننا لاحظنا تاريخ تحقيق هذا الديوان ونشره

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٣٠٦ •

(٢) ديوان ابن قلاقس مطران ص ٤٦ •

ثم درسنا ـ بعد ذلك التاريخ ـ شعر خليل مطران لوجدناه يقتبس فى بعض الاحيان معانيه الشعرية ، وقد لايكون مطران متعمدا هذا الاقتباس غير أنه يلجأ اليه بطريق غير مباشر لتشبع روحه فترة طويلة بتحقيق هـذا الأثر الادبى ، لأن المعانى كما يقول علماء النفس ـ ترسب فى أعماق النفس الانسانية وتظل مضطربة فى الذهن حتى تخرج كما هى أو فى صـورة جديدة واطار جديد ومعنى طريف خلاب ٠

الباب الثالث

نماذج من شعر خليل مطران

١ ـ فاجعة في هزل

جرت هذه الحادثة في قرية بلبنان وذكرها للشاعر بعض شهودها :

كانوا ثمانية من الندماء ... متآلفين كأحسن الرفقاء
في مجلس حجب الشباب بأمرهم ... أبوابه الا على السراء
متحدثين ولا يطيب لمثلهم ... الا حديث الحسن والحسناء
حتى اذا اعتكر الظلام ومزقت ... أحشاؤه قدمين بالاضواء (١)
وتناقلت أشباحهم وتخففت ... أرواحهم من نشوة الصهباء
أصغوا لقول فتى جريء منهم ... غض الشبيبة جامح الأهواء
يا أيها الاخوان أسمع نسوة ... بجوارنا في حفلة وغناء
فهلم نحتل حيلة فيجئننا ... لا خير في أنس بغير نساء
قالوا فما هي قال : ارقد موهما ... اني قضيت معاجلا بقضاء
فاذا انتحبتم جئنكم ، فبرزت من ... كفني وفزنا باجتماع صفاء
فنعاه ناع راعهن فجئن في ... هرج لتوديع الفقيد النائي
وبكينه حتى اذا أدركن ما ... كادوا لهن وثبن وثب ظباء
يضحكن أشباه الشموس تألقت ... عقب الحياة وضاءة اللألاء
وحفلن حول سريره ينهرنه ... لكن أحطن بصخرة صماء
فرفعن عنه غطاءه فوجدنه ... بالميت أشبه منه بالاحياء
عالجنه جهد العلاج ولم يكن ... شيء ليوقظه من الاغماء
حتى اذا دعي الطبيب فجاءهم ... راع القلوب بنفي كل رجاء
فتبدلت أفراحهم في لحظة ... بمناحة وسرورهم ببكاء
وأباتهم هذا المزاح من الردى ... في شر ما يبكى من الارزاء
لو عاش صاحبهم لعاش رهينة ... من بعدها للهجعة السوداء
وكذا الحقيقة جدها ومزاحها ... سيان في الاشقاء والافناء

---

(١) دمين : سالت دماؤها .

الوردتان

اطلعت على الموشحة الآنفة آنسة شرقية من أوانس البيوت المشهورة ... فبدا للناظم انها تتمنى أن ينظم مثلها ويهديها اليها . فأجابها الى ماتمنت .

الشمس والارض والنجوم ... من مظلمات ومبصره
كأحرف سفرها الرقيم ... مذهبه أو محبره (١)
جميعها اسم وهو الحسمى ... في سعة الخلق والزمان
وكل حرف حوى له اسما ... يضيق عن ضمه المكان

***

ونوره الله بابتسام ... تمثيله الباهر البديع
وزان ما فيه من نظام ... بكل ضرب من ابديع
فعقب الشمس بالظلام ... ودبج انعام بالربيع
وانهض الشاهق الأشما ... وأقعد الفور باسنكان(٢)
ومد ماء جرى خضما ... وتحته النار في أمان (٣)
يارب أعظم بما وضعتا ... في الكون من آيك العظام (٤)
أدق شيء مما صنعتا ... كجملة الخلق بالتمام
وكل جزء به جمعتا ... عجائب الكل حيث قام
نثرت نثرا فجاء نظما ... بديعه حلية البيان
وكل بيت منه استتما ... قصيدة تخلب الجنان (٥)
لكن في صنعك الجليل ... أحب شيء لنا الزهر
خلقته بهجة العقول ... ومرتفع النحل والفكر
تكاد من خلقه الجميل ... تستجمع النفس في البصر
عبيره لايمل شما ... يروح القلب وهو عان
ونوره قد يخال فهما ... لما يرى فيه من معان

***

طوائف هذه الازاهر ... وكل حزب له تميز

---

(١) سفرها الرقيم : كتابها قضاء السماء .

(٢) الشاهق الأشم : الجبل العالي ، الفور : المتطامن من الارض

(٣) خضما : بحرا .

(٤) ايك : آياتك .

(٥) تخلب الجنان : تسحر القلب .

مليكهـا الورد لم يكابر منـاظر فيـه أو نظير
تقلد التـاج من جواهر وقام للحكم فى السرير
لـكن يقـولون جرت ظلما فى الزهـر يا وردة الجنان
لأنت أبهى وأنت أسـمى من أن تقيمى للعدل شأن

***

خلقت بيضـاء كالرجـاء فهـام فى حبك النسيم
فراح من دار فى الفضـاء مقبـلا ثغرك الوسـيم
فبت فى حمـرة الحيـاء لذلك المنـكر الجسـيم
ذنب تحللتمـاه قـدما فلبث الورد وهو قـان (١)
كذلك جاءت حـواء اثمـا فعوقب النسل غير جان

***

فدتك مهما كسبت وزرا أزاهر الروض والحجال(٢)
الا فتاة أجـل قـدرا كريمة الخلق والخـلال
تبـر بالبـائسين برا وتشترى أنفسنا بمـال
كلتـاكما وردة تسمى لـكنها وردة الحسـان
وأفضـل الوردتين حكمـا جميلة القلب واللسـان

***

مقتل بزر جمهر

اشتهر كسرى بالعدل وكان بلا نزاع أعدل مايكون الملك المطلق اليد فى أحكام بلاده فان كان ما وصفناه فى هذه القصيدة احدى جنايات مثله فى العادلين فما حال الملوك الظالمين ؟ .

سـجدوا لكسرى اذ بدا اجـلالا كسـجودهم للشمس اذ تتـلالا
يا أمة الفرس العريقة فى العـلى ماذا أحال به الاسود سخالا (٣)
كنتم كبـارا فى الحروب أعزة واليـوم بتم صاغرين ضـئالا
عباد « كسرى » ما غبة نفوسكم ورقابكم والعرض والامـوالا
تستقبلون فعـاله بوجوهكم وتعفرون أذلة أوكالا (٤)

---

(١) قان : احمر
(٢) كسبت وزرا : جنيت ذنبا . الحجال : مقصورات النساء .
(٣) سخالا : أولاد الشاه .
(٤) اذلة أوكالا : ضعافا جبناء .

البتر « كسرى » وحده فى فارس ويعـــد أمة فارس ارذالا
شر العيـــــال عليهم وأعقهم لهم ويزعمهم عليـــه عيالا
ان يؤتهم فضــــلا يمن وان يرم ثأرا يبدهم بالعـــدو قتـــالا
واذا قضى يوما قضـــاء عـادلا ضرب الأنام بعـــدله الأمثالا

***

يا يوم قتل «بزر جمهر» وقد أتوا فيه يلبون الفداء عجالا (١)
متألبين ليشهدوا مـوت الذى أحيـــا البـــــلاد عـدالة ونوالا
يبدون بشراء النفوس كظيمـة يجفلن بين ضـــلوعهم اجفالا
تجـــلو أسرتهم بـروق مسره وقلوبهم تدمى بهن نضـــالا
واذا سمعت صياحهـــم ودويهم لم تدره فرحــــا ولا اعـــوالا

***

ويلوح «كسرى» مشرفا من قصره شمسا تضىء مهابة وجـــلالا
شبحا «لأرموز» العظيـــم ممثـلا ملكا يضم رداؤه رئبـــالا (٢)
يزهـــو به العرش الرفيع كأنه بسنى الجواهر مشـــعل اشعالا
وكأن شرفته مقـــام عبـــادة نصب التكبر فى ذراه مثـالا
وكأن لؤلؤة بقائم سيفه عين تعد عليهم الآجالا ؟

***

ما كان «كسرى» اذ طغى فى قومه الا لمـا خلقوا به فعـــالا (٣)
هم حكموه فاستبد تحكما وهم أرادوا أن يصول ، فصـالا
والجهل داء قد تقادم عهده فى العالمين ولا يزال عضـــــالا
لولا الجهالة لم يكونوا كلهـــــم الا خلائق اخوة أمثـــالا
لكن خفض الاكثرين جناحهم رفع الملوك وسود الأبطـــالا
واذا رأيت الموج يسفل بعضـــه ألفيت تاليه طغى وتعـــالى
نقص لفطرة كـــل حى لازم لا يرتجى معه الحكيم كمـــــالا

***

واذا استوى كسرى وأجلس دونه قواده البسلاء والأقيــــــالا
صعدت اليه من الجماعة صيحة كـادت تزلزل قصـره زلزالا

---

(١) بزر جمهر : ضبطت بهذا الشكل كما ينطق بها الفرس في لغتهم .
(٢) ارموز : الاله الاكبر للفرس . رئبالا : أسدا .
(٣) خلقوا به : استحقوه .

واذا الوزير «بزرجمهر» يسوقه ... جلاده متهاديا مختالا
وتروح حولهما الجموع وتغتدى ... كالموج وهو مدافع يتتالى
سخط المليك عليه اثر نصيحة ... فاقتص منه غواية وضلالا
«أبزر جمهر» حكيم فارس والورى ... يطأ السجون ويحمل الاغلالا؟
« كسرى » أتبقى كل قدم غاشم ... حيا وتردى العادل المفضالا ؟ (١)
وتدق في مرأى الرعيـة عنقه ... ليموت موت المجرمين مذالا ؟ (٢)
أين التفرد من مشورة صادق ... والحكم أعدل ما يكون جدالا ؟
ان تستطع فاشرب من الدم خمرة ... واجعل جماجم عابديك نعالا
واذبح ودمر واستبح أعراضهم ... واملأ بلادهم أسى ونكالا
فلأنت «كسرى» ما ترى تجريمه ... كان الحرام وما تحل حلالا
وليذكرن الدهر عدلك باهرا ... ولتحمدن خلائقا وفعالا
لو كان فى تلك النعاج مقاوم ... لك لم تجىء ما جئته استفحالا
لكن أرادت ما تريد مطيعة ... وتناولت منك الاذى افضالا

***

ناداهم الجلاد : هل من شافع ... « لبرز جمهر » فقال كل : لا٠٠لا
وأدار «كسرى» فى الجماعة طرفه ... فرأى فتاة كالصباح جمالا
تسبى محاسنها القلوب وتنثنى ... عنها عيون الناظرين كلالا (٣)
بنت الوزير أتت لتشهد قتله ... وترى السفاه من الرشاد مدالا
تفرى الصفوف خفية منظورة ... فرى السفينة للخباب جبالا (٤)
باد محياها ، فأين قناعها ؟ ... وعلام شاءت أن يزول فزالا ؟
لاعار عندهم كخلع نسائهم ... أستارهن ولو فعلن ثكالى

***

فأشار «كسرى» أن يرى فى أمرها ... فمضى الرسول الى الفتاة وقالا :
مولاى يعجب كيف لم تتقدمى ... قالت له : أتعجبا وسؤالا ؟
انظر وقد قتل الحكيم ، فهل ترى ... الا رسوما حوله وظلالا ؟
فارجع الى الملك العظيم وقل له ... مات النصيح وعشت أنعم بالا
وبقيت وحدك بعده رجلا فسد ... وارع النساء ودبر الاطفالا
ما كانت الحسناء ترفع سترها ... لو أن فى هذى الجموع رجالا

---

(١) غاشم : جاهل ظالم . تردى / تقتل .
(٢) مذالا : مهانا .
(٣) كلالا : ضعفا .
(٤) الخباب : الموت .

قال في سيدة زانت راسها بباقة فل

أدلت من الرأس فـــلا فوق الجبين فحـــلى
مـــا كان عهدى قبـــلا بالورد يحمـــل فـــلا

المســاء

قال الناظم وهو عليل في مكس الاسكندرية :

داء ألم فخلت فيه شفائى من صبوتى ، فتضاعفت برحائى
يا للضعيفين ! استبدا بى وما فى الظلم مثل تحكم الضــعفاء
قلب اذابتــه الصبابة والجوى وغــلالة رثت من الادواء
والروح بينهما نسيم تنهد فى حالى التصويب والصــعداء
والعقل كالمصباح يغشى نوره كدرى ويضعفه نضــوب وعائى

***

هــذا الذى أبقيتــه يا منيتى من أضلعى وحشاشتى وذكائى
عمرين فيك أضعت لو انصفتنى لم يجــدرا بتأسفى وبكائى
عمر الفتى الفانى وعمر مخــلد ببيانه لولاك فى الاحيــاء
فغدوت لم أنعم كذى جهــل ولم أغنم كذى عقل ضمان بقــاء

***

ياكوكبا من يهتدى بضــيائه يهديه طالع ضــلة ورياء
ياموردا يسقى الــورود سرابه ظمأ الى أن يهلكوا بظماء
يازهــرة تحيى رواعى حســنها وتميت ناشقها بلا ارعاء (١)
هذا عتابك ، غير انى مخطىء ابرام سعد فى هوى حسناء
حاشاك بل كتب الشقاء على الورى والحب لم يبرح أحب شقاء
نعم الضلالة حيث تؤنس مقلتى أنوار تلك الطلعــة الزهراء
نعم الشفاء اذا رويت برشــفة مكذوبة من وهم ذاك المــاء
نعم الحيــاة اذا قضيت بنشقة من طيب تلك الروضــة الغنــاء

***

أنى أقمت على التعلة بالمنى فى غربة قالوا : تكون دوائى

---

(١) رواعى : العيون التى ترعى .

أن يشف هذا الجسم طيب هوائها ... أيلطف النيران طيب هواء ؟
أو يمسك الحوباء حسن مقامها ... هل مسكة في البعد للحوباء ؟ (١)
عبث طوافي في البلاد وعلة ... في علة منفاي لاستشفاء
متفرد بصبابتي ، متفرد ... بكآبتي ، متفرد بعنائي
شاك الى البحر اضطراب خواطري ... فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لي ... قلبا كهذي الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي ... ويفتها كالسقم في أعضائي
والبحر خفاق الجوانب ضائق ... كمدا ، كصدري ساعة الامساء
تغشى البرية كدرة وكأنها ... صعدت الى عيني من أحشائي
والأفق معتكر قريح جفنه ... يغضي على الغمرات والأقذاء

***

يا للغروب وما به من عبرة ... للمستهام ! وعبرة للرائي !!
أو ليس نزعا للنهار وصرعة ... للشمس بين مآتم الأضواء ؟
أو ليس طمسا لليقين ومبعثا ... للشك بين غلائل الظلماء ؟
أو ليس محوا للوجود الى مدى ... وابادة لمعالم الأشياء ؟
حتى يكون النور تجديدا لها ... ويكون شبه البعث عود ذكاء (٢)

***

ولقد ذكرتك والنهار مودع ... والقلب بين مهابة ورجاء
وخواطري تبدو تجاه نواظري ... كلمى كدامية السحاب ازائي (٣)
والدمع من جفني يسيل مشعشعا ... بسنى الشعاع الغارب المترائي
والشمس في شفق يسيل نضارة ... فوق العقيق على ذرى سوداء (٤)
وجرت خلال غمامتين تحدرا ... وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد ... مزجت بآخر ادمعي لرثائي
وكأنني آنست يومي زائلا ... فرأيت في المرآة كيف مسائي

***

---

(١) يمسك الحوباء : يحفظ الروح .
(٣) ذكاء : الشمس .
(٢) كلمى : جريحة .
(٤) ذرى : مرتفعات .

شقاء الحب

اشتد المرض على الفتاة فأودى بشبابها ونعيت الى محبها فبكى واستبكى عليها بالقصائد التالية :

مثال في مرآة

من بالمنون لواله صب ذاكي الاضالع مقلق الجنب
ليت الرزيئة فيك أودت بي فنجوت من ألمي ومن كربي
وفزعت من نفسي الى ربي

يا منيتي ما كنت بالجزع في حادث أيام كنت معي
والآن بت مخلد الفزع ميتا بلا أمل ولا طمع
حيا بذكر معاهد الحب

كنا وكان الحب يجعلنا ملكين في فلك يجللنا
روحين في روح يظللنا نورين في نسور يكللنا
متقلدين قلائد الشهب

كنا وكان الحب ينصبنا ملكين تاج السعد يعصبنا
لا شيء يحزننا ويغضبنا والدهر يخدمنا ويرهبنا
وسريرنا عال على السحب

كنا وكان الحب يجمعنا الفين ، في الفردوس مرتعنا
لا شيء بعد الحب يطمعنا لا نبتغي أمرا فيوجعنا
اخفاقنا في المطلع الصعب

كنا كغصني دوحة نبتا بل زهرتي غصن تعانقتا
بل حبتين بزهرة نمتا وتساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب

تمت سعادتنا على قدر فسطت عليها غيرة القدر
أودت معا بالعين والأثر وتخلف الباقي من الخبر
ذكرى وتبصرة لذي لب

ماتت وكل ضـــاحك جذل ما للورى ولموت من جهلوا ؟
لا قلب يبكيهــــا ولا مقل بل نبلهــا واللطف والأمل

وشبابها وطهارة القلب

ماتت ونور البـدر مرتسم في الماء فهو أعز مبتســم
والروض زاه بالنـدى شبم والطير تصــدح فيه والنسم

والزهر والأغصان في لعب

تلك المحاسن في تفردهــا تلك الفضــائل في تعددها
تلك الشــمائل في تجردها عن كل شــائبة بموردهــا

اني تبيت وديعة الترب

أين الدموع تدرها السحب ؟ أين الحمام يبيت ينتحب ؟
ولمن تعد حدادها الشــهب ؟ ولمن رياض الأنس تكتئب ؟

فتغيب في سود من الحجب

كان

مررت في العمــر مــرة وكنت أنت المسره
كانت حيــاتي روضـــا وكنت في الروض نضره
وكان غصـــنا شـــبابي وكنت في الغصـن زهره
وكان فكري ســـــماء وكان حبـــك فجـــره
وكان حســـنك يوحـي الى يراعــــى ســـــره
وكان لحظـــك يهــدي الى بيـــاني ســـحره
وكان ثغـــرك يمــلي على ســـــماعي دره
وكان طيبـــك يهـــدي الى ثنـــائي نشـــره
وكنت للـــروح روحـــا وكنت للعـــين قـــره
قد كان هـــذا ولـكن مضى وأخلــف حســـره
فبت لا شيء الا حالين : ذكـــرى وعبره

***

انتهت حكاية العاشقين

حق الوطن
وحق الاخاء

هى المرثية التى أنشدها الناظم على ضريح المغفور له مصطفى كامل باشا فى حفلة الأربعين ·

أعلى مكانتــك الالـــه وشرفا ... فانعم بطيب جواره يامصطفى
اليـــوم فزت بأجر ما أسلفتــه ... خيرا ، وكل واجد ما أسـلفا
وجزيت من فانى الوجود بخالد ... ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

***

أعظم بيومك فى الزمان ومن له ... بك واصفا ذاك الجلال فيوصفا
يوم الملائكة الـــكرام تنزلوا ... حانين حولك فى السرير وعكفا
وتحملوك على الأشـــعة وارتقوا ... سربا يجوز بك الدرارىء موجفا
فوردت وردك فى الخلود منعمـا ... والأرض مائدة عليك تأســــفا
لم تلف قبلك أمـــة فى مشهد ... يذرى الرجـال به المدامع ذرفا
متثـاقلين من الوقـــار وانمــا ... ســاروا بطيف ناحل أو انحفا
بحر من الأحيــاء نعشــك فوقه ... فلك يظلله اللـــواء مرفرفا
يبكـــون فى آثاره العـلم الذى ... آثاره من رفعـــة لا تقتفى

***

صحوة العرب

يا معشر العـــرب الـكرام الألى ... بهم أباهـــى كل ذى معشر
يا أمـــة أنكـــرت تفريقهـــا ... انـــكار لا قال ولا مـــزدر
يصـــدق من يوقـظ حبـــا له ... وقد غفـــا عن طارىء منـــذر
كم بت استشفع منهـــا لهـــا ... ونومهـــا من ريبـــة مسهرى
أقول هل من رقـــدة قبلهـــا ... بغـــيرك امتـــدت الى أعصر
ألم ترى أن قرار الضـــحى ... غـــرم وان الغـــرم للمبكـــر
اربى على كل ســـبات مضى ... نومك فى المبـــدى وفى المحضر
يا أمـــة تاريخهـــا حـــافل ... بالآى من مبتـــدأ الأدهـــر
من عهـــد قحطـــان تباعا الى ... قيس بن شـــيبان الى عنتر
الى اليتيـــم القـــرشى الذى ... أعجـــز بالـــرأى وبالأبتر

مستنزل الوحي الذى دال من كسرى وألقى التاج عن قيصر
الى فتى أجنـــادها بعـــده وشـيخها بالعقـــل والمخبر
الى الذى لم يلف نـــد له فى مالك بالعـــدل مســتعمر
الى ابن عفـان وفيما تــلا دمـــاؤه تجرى على الأسـطر
الى على سـيفها فى الوغـى وصـوتها المســموع فى المنبر
الى نجـوم عـز احصـاؤها من قـادة غر ومن عسـكر
ومن أولى حـزم اداروا به مرافق الدنيـا على محـور
ومن أولى علم أفاضوا هدى على النهى من نوره الأزهـر
ذلك ما كنت على سـمعها التيه ان اسر أو أجهـر
وطالمـا عدت وبى حزن من حاول أحيـانا فلم يقـدر
سـهران لكن رجائى بها يؤنسنى فى ليـلى الأعكر
كالكوكب الثـابت فى قطبه يسطع فى فكرى وفى منظرى
عاتبتهـا حتى اذا روعت بطيف شر اشعث أغـبر
متلثم الهـام خئون الخطى جـم مـن العدة مسـتكثر
منطـاد جـو فارس راجل خواض بحر فى الدجى مبصر
قلت لقد حل المصاب الذى يوقظهـا يا نفس فاستبشرى

.

تم الكتاب

فهرس


الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر



العدد ٨٥

الثمن ١٥ ص